ثلاثة وثلاثين قرن من

تاريخ الامازيغيين

تأليف : محمد شفيق



ثلاثة وثلاثين قرن من

تاريخ الامازيغيين

تأليف : محمد شفيق



المقدمة

من الاقوال الشائعة التي هي عند عامة الناس بمثابة الحكم الفلسفية أن «التاريخ ذاكرة الشعوب». وإذا كان الأمر كذلك، فلا شك أن الشعوب تتذكر ما مر بها من العقود والقرون والعصور كما يتذكر الأفراد ما مر بهم من الأيام والشهور والسنين. والمعلوم أن من الأفراد من له ذاكرة قوية، ومنهم من له ذاكرة ضعيفة، لكنهم يلتقون جميعا في ميلهم الى زخرفة ذكريات الماضي وتجميلها، وإلى طرح كل ما هو عبء ثقيل على ضمائرهم وإزالة كل غبشة تشين صورة أيامهم الفارطة كما يشتهون أن يتخيلوها. ولهذا يكره الأفراد وجود شهود صدق على ماضيهم. ولا تختلف في ذلك الشعوب عن الأفراد، غير أن بعضها ينشغل بتكاليف الحاضر عن أخبار الماضي، باستمرار، فتمر به الأزمان تلو الأزمان، إلى أن يقتصر علمه بما سلف من دهره على ما يحكيه له غيره. والغالب أن ذلك «الغير» لا يمكن أن يكون إلا ندًّا سبق له أن كان عدوا للأسلاف والأجداد، أو كان لهم خصما، في أحسن الحالات.

ولعل الأمازيغيين خير نموذج للأمم التي لم تكن لها ذاكرة خاصة بها، مادامت الذاكرة هي تدوين السيرة الذاتية. فكأنَّ

إسهامهم في صنع التاريخ مع أطراف متعددة متعاقبة، خلال ما يربو على ثلاثة آلاف سنة، عوَّدهم أن يوطنوا أنفسهم على نسيان الماضي، لأن ذكره، حينما يتكرر، لاينتج منه إلا التبجح ونوع من التشبب كالذي يهواه الشيخ الهرم الكُنتي الفاقد الأمل في المستقبل. والواقع أن التاريخ لايمكن أن يكون الا «علما تحت الحراسة»[1] لأن البحث العلمي الحق يقتضي من الباحث أن يتجرد من كل ما هو ذاتي في تفكيره ووجدانه.

وإذا كان من المستحيل على المؤرخ ـحتى في عصرنا هذا المستوعب لمفهوم «الموضوعية» ـ أن يتجرد من المشاعر الوطنية، أو القومية، أو الدينية، ومن التصورات المذهبية، فما بالك بمن أرَّخوا لماجريات العصور الغابرة، إذ كانت العصبيات، على اختلاف أشكالها ودرجاتها، هي قوام التماسك الاجتماعي، وكان التعصب للدين، أو للجنس والعرق، يعد بمثابة الفضيلة الاولى!.

إن في موقف الأمازيغيين تجاه ماضيهم لنوعا من النبل والشهامة، فكأنَّ لسان حالهم يقول: فليكن ذلك الماضي ما كان، إنه لا يهمنا.

لكنَّ فيه أيضا نوعا من الغفلة والسذاجة، مادام لأقوال الناس في الناس تأثير على تصورات عامة الناس وتخيلاتهم وتبلور آرائهم سواء أكانت تلك الأقوال صادقة أم كانت كاذبة. وما أكثر ما قاله الناس بخصوص الأمازيغيين منذ فجر التاريخ،

1 _ هذا عنوان كتاب فرنسي لصاحبه "مارك فيرُو":
Marc Ferro "L'histoire sous surveillance", Editions Calmann -Lévy, Paris, 1985.

والأمازيغيون سكوت. ولعلهم اليوم أحسن الأمم حظا في القدرة على استطلاع الحقائق عن غابر أزمانهم بكيفية موضوعية، ذلك لأنهم لم يتيحوا لأنفسهم قط فرصة تزييف ولا تزويق؛ عهدتهم في تحليل تاريخهم وتركيبه كلها على من كتبوا في شأنهم بالتوالي ابتداء من عهد الفراعنة الأول وانتهاء بعهد ضباط «التهدئة الفرنسية». أي على خصوم تنطبق على رواياتهم لتاريخ الأمازيغيين، أحسن ما يكون الأنطباق، القولة المأثورة المقتبسة من الذكر الحكيم «وشهد شاهد من أهلها...» وقد كان أولئك «الأهل» الشهود هم الكتبة من المصريين القدماء، ومن اليونان والفينيقيين والرومان والوندال والبيزانتيين والعرب والفرنسيين والأسبانيين.

أما المشهود على أمرهم، فلو لم يزل بعضهم ــ أو جلهم؟ ــ يحمل ورقة تعريفه، لأيقننا أنهم اندثروا منذ زمان، وصاروا جميعا خبر كان.

وورقة تعريف الأمازيغي، في وقتنا الحاضر، هي قدرته على الافصاح بلغة «الزاي»[1]، أو تعاطفه معها، أوعدم تنكره للأجداد «محلقي الرؤوس، آكلي الكسكس، لابسي البرنس» وهو أضعف

1 _ حرف (الزاي) من الحروف التي يكثر سماعها في اللغة الأمازيغية، وهو نوعان: زاي مرقق وزاي مفخم. والتمييز بينهما في النطق والكتابة ضروري، لأن بالترقيق والتفخيم يفرق بين مدلول ومدلول. «ئزي»، بالزاي الرقيقة، هو الذبابة؛ بينما «ئزي» بالزاي المفخمة هو المرارة التي تفرز المِرَّة. وقد كان ابن خلدون يرسم الزاي الامازيغية المفخمة صادا في جوفها زاي مصغرة، أما الناصري (وغيره) فكان يرسمها صادا، وهي الأصل في اسم «أزيلا» المحرف الآن إلى «أصيلة». والنسبة الصحيحة ألى تلك المدينة هي «الزيلاشي»، بشين تستحق أن يُبحث عن سر ظهورها.

الإيمان. أما من يدعي أنه براء من «الشلحاء» و«الشلوح» معا، فله ذلك، سواء أ صرَّح أم لمَّح أم أسرَّ، لأنه حر في أن ينتسب أو يتنسَّب كما يشاء، حر حتى في ترجيح جانب المعرفة الأسطورية على جانب المعرفة العلمية، ما لم يمل إلى فرض معتقداته على غيره، ولم يجعل تنسُّبه وسيلة للتسلط والهيمنة.

الرباط 08 صفر 1409 الموافق 21 شتنبر 1988 المؤلف

إمازيغن هم «البربر»

إمازيغن في اللغة «البربرية» جمع، مفرده: أمازيغ، وهو الاسم الذي يسمّى به «البربر» أنفسهم. مؤنث أمازيغ هو تامازيغت، يطلق على المرأة وعلى اللغة، عند قبائل التوارگ المنتشرة في قلب الصحراء الكبرى، يُسكّن حرف الزاي في «أمازيغ» ويقلب إما هاء، وإما شينا أو جيما، بحيث تنطق اللفظة «أماهغ» عند التوارگ الجزائريين، و«أماشغ» عند التوارگ الماليين، و«أماجغ» عند التوارگ النيجيريين (Ency. Berb IV 563).

كلمة أمازيغ، من حيث صيغتها اللغوية، اسم فاعل، وهي صيغة نادرة لم يوضع على وزنها إلا عدد قليل من أسماء الفاعل، وهي مشتقة حسب ما هو متوفر من القرائن، من الفعل «يوزغ» ـ المنطوق «يوهغ» عند التوارگ ـ الذي معناه غزا، أو أغار. ويرى بعض اللغويين أن «أمازيغ» مشتق من فعل آخر اعتبروه مُماتا في اللهجات كلها، قد يكون هو الفعل «إزيغ» أو الفعل «يوزاغ» (Ency.Ber. IV, 566) وهو افتراض انبنى على الخلط بين ثلاثة أفعال أخرى، هي «ياغ» بمعنى أصاب أو اعترى، و«ياغ» أو«يوغ» بمعنى أخذ أو نال أو سقط أو اشتعل أو أضاء، و«يووغ» بمعنى رعى في معنى انتجع. وعلى أي حال، «أمازيغ» اسم مشرب معنى النبل والشهامة والاباء، سواء في المغرب أو عند التوارگ

(De Foucauld, II 673) . قد يكون ذلك ناجما من مجرد الاعتزاز بالنفس من قبل إمازيغن، لأن الشعوب تتخذ عادة أنسابها عنوانا للعزة والمناعة، وهو ما نعتقده.

تسمية «البربر» أنفسهم بـ«إمازيغن» ضاربة في القدم، وبها عرفهم أقدم المؤرخين، وعرفهم بها أقرب جيرانهم إليهم، وهم المصريون القدماء، مع تحريف لاسمهم في النطق، ثم في الكتابة، له مبرراته اللغوية. كان المصريون القدماء في عهد «راعامسيس» الثالث يسمونهم «ماشوش» لأن اللغة المصرية في ذلك الوقت كانت تقلب الزاي شينا، والغين شينا أيضا، بعد قلبه خاء، وتفصل في الكتابة بالواو (بواو فارقة) بين الحرفين المتجانسين (Grammaire, 27,28,29) وقد ذكر المؤرخ اليوناني هيكاتايوس Hekataios إمازيغن في القرن السادس قبل الميلاد باسم «مازييس «Mazyes وذكرهم هيروضوتوس Herodotos في القرن الخامس ق. م. باسم «ماكسييسMaxyes ». أما المؤرخون اللاتينيون فقد أوردوا الاسم نفسه محرفا إلى «مازاكس Mazax أوMazaces » أو إلى «مازيكسMazikes ». وهي أسماء جموع (Collectifs) بمعنى واحد، أطلقوها على «الشعب النوميدي»(Dictionnaire latin, 956) . ويظهر أن أول قبيلة أمازيغية كبرى احتكت بقدماء المصريين احتكاك حرب (1227 ق. م.) كانت تسمى «ليبو» وكانت مستوطنة لأراضي ليبيا الحالية (Berbères، عن هيروضوتوس، 11). وقد اختلط الأمر على المؤرخين الأول، ومنهم هيروضوتوس، فصاروا يسمون إمازيغن تارة باسمهم هذا محرفا قليلا أو كثيرا، وتارة باسم «ليبيا Libye

» الدال في شعر هوميروس Homeros على الأراضاي الممتدة من تخوم مصر القديمة شرقا إلى المحيط غربا (Dictionnaire grec, 1190). ولما أنشئت المستعمرات الفينيقية على شواطئ أفريقية الشمالية وازدهرت ولفتت أنظار اليونان والرومان إلى الساحل الجنوبي للبحر المتوسط، أخذ الكتاب الاغريق واللاتينيون يسمون الأمازيغيين عامة بـ «الأفارقة» ويصنّفونهم إلى ليبيين و نوميديين و موريين، انطلاقا من الشرق وانتهاء بالمغرب. وكان منهم من يخلط بين هذه الأسماء (Scylax، في Le Maroc chez les auteurs anciens ، ص 18، وCesar ، في La guerre d'Afrique، ص 4) فصاروا يسجلون أسماء المجموعات القبلية الأمازيغية بشيء من التفصيل، يصعب، بل يتعذر اعتماده في ترتيب تلك المجموعات من حيث أحجامها ولا من حيث استمرارية وجودها في الزمان حاملة اسمها الأول، ولا من حيث انتشارها في المكان، وذلك نظرا لما طرأ من تحريف في النطق والتسجيل، من جهة أولى، ولكون تلك القبائل تتألف في معظمها من عشائر البدو الرحل، من جهة ثانية، ثم نظرا لاعتبار أمر لابد من اعتباره هو أن من المحقق في ضوء ما هو ملحوظ إلى يومنا هذا، أن المترجمين للقبائل عن سماع عبر الزمان أو عبر المكان، كثيرا ما يخلطون بين الجزء والكل، من جهة ثالثة. وعلى سبيل الاشارة لا الترجيح نستعرض هنا أسماء القبائل الأمازيغية القديمة كما استقرأها الأستاذ ديزانج Desanges في تعليقه على بلينيوس الأكبر (Histoire Naturelle, V) مجتهدا في رسم خريطة لمواطن كل قبيلة:

1 ـ حسب ديزانج كانت قبيلتا «ماسايسيلي أو ماسايسولي، Masaisuli, Masaesyli» و«بانيورايي، Baniurae » تستوطنان شماليّ المغرب الأقصى بين المتوسط شمالا والمحيط غربا ونهر سبو جنوبا. وكانت قبيلة «أوتولولي، Autololes » منتشرة في السهول الأطلنتية بين بوراكَراكَ وتانسيفت الحاليين. وكانت قبيلة «كاناريي، Canarii » نازلة بناحية فيكَيكَ الحالية.

2 ـ وفي المغرب الأوسط كانت القبائل النوميدية Numidia مستقرة أو شبه مستقره في شرقي البلاد، بينما كانت قبائل «كَايتولي، Gaetulia » تنتجع في الأنجاد العليا Les Hauts Plateaux وقبائل «أيثيوبيا، Aethiopia » تشغل المنطقة الممتدة جنوب الأطلس الصحراوي .

3 ـ وفي تونس الحالية كانت القبائل النوميدية نفسها منتشرة في غربيّ البلاد من الساحل المتوسطي إلى ناحية القيروان الحالية، ممثّلة أحسن تمثيل في قبيلة «ماسيلي، Massili, Massyli» أو «ماسولي، Massuli » المنطوق اسمها هكذا بسين مضعفة باعتبار النطق الفرنسي والمنطوق اسمها، حسب ما نرجح «مازولي» أو «مازيلي» بالزاي، لأن السين المضعفة كانت بمثابة الزاي، عند اللاتينيين قبل تبنيهم Y و Z اليونانيين. (Traité de grammaire, 33). أما اراضي «زاوكَيتانا أو زاوغيتانا، Zeugitana » و «بيزاكينا أو بيزاقينا، Byzacena» فكانت خاضعة للنفوذ القرطاجي، قبل الاحتلال الروماني لها .

4 ـ وفي ليبيا نجد، حسب ديزانج قبيلة، «فازانيي، Phazanii

» من الجهة الجنوبية الغربية للجبال المعروفة الآن بجبل نفوسة، ثم نجد بالتتابع على مقربة من الساحل المتوسطي، وانطلاقا من الغرب تجاه الشرق، قبيلة «ماكايي، أو ماقايي، أو ماغاييMacae »، فقبيلة «ناساموني،Nasamones »، فقبيلة «مارماريداي،Marmaridae »، فقبيلة «ماريوتاي،Mareotae »، وهي الأخيرة من جهة الشرق، تمتد مواطنها إلى بحيرة قرب دلتا النيل كانت تسمى باسمها. وفي عرض الصحراء الليبية، حيال الخليج من جانبه الغربي، كانت توجد مواطن قبائل «كَارمانتي، أو غارامانتي، أو جارامانتي،Garamantes».

من المعلوم أن المغرب الأقصى مع الجزء الأكبر من المغرب الأوسط كان يعرف عند اليونان باسم «ماوروسيا،Maurusia »، هم الذين سموا هذه المنطقة بهذا الاسم لأول مرة، فأخذه عنهم الرومان وقالوا «ماوريتانيا،Mauritania » وهنا يجب لفت النظر إلى أن الاسم اليوناني Maurusia قريب من حيث مادته اللغوية من الفعل الاغريقي «ماورسو،Maurso » الذي معناه «أظلم». فهل معنى ذلك أن اليونان كانوا يقصدون بـ «ماوروسيا،Maurusia » أرض الظلمات، لأن الشمس تغرب فيها بالنسبة إليهم ؟ وهل لذلك علاقة بما كان العرب يسمونه «بحر الظلمات»؟ هذان سؤالان يستحقان أن يبحث عن جواب لهما. أما الجزء الشرقي من المغرب الأوسط وما يليه من غربيِّ تونس الحالية، فكان يسمى «نوميديا،Numidia » وكانت الأراضي المحاذية للشاطئ المتوسطي شرقا وشمالا تسمى «أفريقا،Africa » والنسبة إليها في اللاتينية هي «آفر،Afer » المجموعة على



زعماء قبائل أمازيغية كما رسمتهم ريشة فنان مصري حوالي سنة 1300 قبل الميلاد، عثر على الرسم في ضريح الفرعون ستي الأول (من الأسرة التاسعة عشرة)

«أفري.Afri » فيما يهم الأناسيِّ، و «أفريقانوس.Africanus » أو
«آفريقوس.Africus » في الشعر خاصة، فيما يهم الحيوانات
والأشياء (Dictionnaire français-latin, 59). وبقدر ما يمكن
الفصل بأن اسمي «ماوريتانيا، Mauritania أو ماوروسيا،
Maurusia» و «نوميديا.Numidia » ليسا أمازيغيين، بقدر ما
يمكن ترجيح أن هذه الألفاظ الثلاثة «آفر.Afer » و «أفريقوس،
أو أفريغوس، أو أفريكوس، Africus » تنتمي من حيث صيغتها
إلى الحقل اللغوي الأمازيغي، وحتى من حيث مدلولاتها. لكن
لاسبيل إلى الجزم في الموضوع، لأن اللغة اللاّتينية كانت تلحق
بالأسماء زوائد إعرابية متغيرة، تظهر حينا وتختفي حينا، من
جهة، ولأن حروف الهجاء في نظام الكتابة اللاتينية تطور
عددها مع الزمن، فتغيرت رمزية بعضها الفونولوجية (Traité
de grammaire, 33...). ولهذا السبب، وللأسباب الأخرى
المذكورة آنفا، يكاد يتعذر على المؤرخ حاليا أن يقارن بين أسماء
القبائل الأمازيغية التي وردت في المؤلفات اليونانية واللاتينية
القديمة، وبين أسماء القبائل التي عددها ابن خلدون في عصره،
إلا أن اسم قبيلة «لواتا» الشهيرة أورده بعض كتاب الاغريق
واضحا لا غبار عليه: «لواتا، أو لواتاه.Louâtah « كما ذكروا
اسم «إفوراقس، أو إفوراغس، أو إفِورن.Ifuraces » الذي يمكن ان
يشخص في «إفوغاس» التوارك أو في «يفرن» (Les Berbers,
Fournel, 98..103). ويجوز أن نتساءل: هل من علاقة بين
«كاناريي، Canarii» والجزر الخالدات؟ أو بين «أوتولولي.Autololes
» و «والال، أيت والال»؟ وبين «كايتوليا.Gaetulea » و«كودالا»؟

وبين «مازيلي، مازولي، Massili, Massyli, Massuli » و«مزالا، أيت
مزالا، إمزيلن»؟ وبين «زاوكَيتانا، زاوغيتانا.Zeugitana » و «زواغا،
ئزكَاغن»؟ وهل لاسم «فازانيي.Phazanii » صلة بنفوسة، أو على
الأرجح بالفزّان الحالية، التي عرفت عند التوارك باسم «تاركَا»؟
(Dictionnaire Touareg, IV, 1588). أما «بانيورايي.Baniurae
» فقد اقترح باحث مغربيٌّ أن نشخصها في «بني واراين» إلا
أن ذلك مستبعد، لأن الاسم الأمازيغيَّ لهذه القبيلة هو «أيت
واراين» وفي العهد الاسلاميِّ ترجمت «أيت» إلى «بني».

سبب تسمية
إمازيغن بـ «البربر»

كانت الشعوب قديما قليلة التواصل بينها، وكانت تعتبر أن من لا يفصح عما يريد في لغتها هي لايمكن أن ينعت إلا بالعُجمة، أي بالخرس والبكامة. ولذا كان للعرب عجمهم، ولليونان عجمهم، هم «البارباري،Barbari » وكان للأمازيغيين عجمهم أيضا، هم» إكَناون» وقد لزمت هذه التسمية بعض شعوب أفريقية الغربية، فيما تفرع عنها من أسماء البلدان، كغينيا وغانا، اللتين كان ينسب إليها في المغرب بـ » كَناوي، عبد كَناوي» والغين في غانا وفي غينيا مقلوبة عن الكاف المعقودة. ولا تزال فئة من سكان المغرب الذين هم من أصل زنجيّ يسمون «كَناوا». أما اللفظة الأمازيغية الأصلية فهي »أكناو« التي تجمع على» إكَناون « ومعناها الأعجم، الأبكم، الأخرس... كان اليونان اذن يطلقون اسم Barbari على غيرهم من الشعوب، بدءا باللاتينيين. ولما أخذه عنهم الرومان صاروا يسمون به كل شعب خارج عن المجال الحضاري اليوناني اللاتيني (Dictionnaire latin, 207). فمن المحقق إذن أن الأمازيغيين كانوا »بارباري، «Barbari في نظر الرومان، وكانوا ينعتون بذلك النعت، لاسيما أنهم قاوموا روما مقاومة شديدة، حربيا (Rome et) les Berbères وثقافيا

(la Résistance Africaine) ولاسيما أن جل قبائلهم ظلت خارج المناطق الشمالية الخاضعة للنفوذ الروماني. فلزمهم طيلة عهد الرومان. وكان من الطبيعي أن يلزمهم طيلة عهد السيطرة البيزانتية على مدن الساحل المتوسطي الجنوبي، بما أن» الروم «اي البيزانتيين من ورثة الأمبراطورية الرومانية. وعند الفتح الاسلامي، أخذ العرب عن» الروم « كلمة» بارباري، «Barbari وجعلوها» بربر». ولقد ظل الافرنج، اي الأوروبيون يسمون أفريقية الشمالية» باربارياBarbarie, Barbaria، أو الدول الباربارية،«Etats Barbaresques ، إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي (Dictionnaire Robert). ولما احتكوا بأهالي المغرب والجزائر الناطقين بالعربية العامية، سمعوا منهم اسم »لبرابر « منطوقا براءين مرقّقتين ونقلوه إلى لغاتهم في شكل Berbères أو Berbers .

وما سوى هذا من التفسيرات التي ذهب إليها بعض المؤرخين العرب متكلّف ليس له ما يثبته بالاستدلال والمنطق. إن كل ما روي من الأشعار العربية في موضوع نسب» البربر « وإلحاقهم بقبائل العرب، من مضرية وقحطانية، لم يكن مبنيا على معرفة مضبوطة، وإنما كان صادرا عن رغبات سياسية كانت تراود نفوس العرب و«البربر « معا. والدليل على ذلك أن شعراء عربا آخرين حاولوا أن ينسبوا إلى » العروبة « شعوبا أخرى غير» البربر « فقالوا في الأكراد مثلا (لسان العرب، لابن منظور، مادة: كرد) :

لعمرك ما كرد من أبناء فارس *** ولكنه كرد بن عمرو بن عامر

وعلى أي حال لقد تجاهل الأمازيغيون اسم» البربر « في لغتهم طوال العصور، واحتفظوا باسمهم الأصلي » إمازيغن « ولم يتقبل منهم اسم» شلوح « الذي سموا به في المغرب ـ وربما لأن بعض قبائلهم كانت تقطع الطرقات على المسافرين ـ إلا سكان غربيّ الأطلس الكبير وسوس، يسمون أنفسهم » إشلحيين«، مع الإفراد على » أشلحي «، لكن لوحظ عندهم في العقدين الأخيرين أنهم يفضلون اسم » إمازيغن «. ومما يجب ذكره أن لفظة » أرومي « أي الرومي أو الافرنجي في اللغة الأمازيغية محمّلة في أصل مدلولها بمعنى القساوة وانعدام الرأفة، توازي في ذلك كلمة »بارباري، «Barbari الرومية. ولهذا التوازي امتداد فيما تسمى به ثمرة الصبار الشائكة القشرة المعروفة عند المغاربة بـ » كرموص النصارى « أي » تين الأفرنج « وعند الفرنسيين « Figue de Barbarie» أي تين بلاد » البربر «. وقد أخذ المشارقة اليوم لفظة » بربر « barbare عن الأوربيين مباشرة بما أشربت من معان، فقالوا » أعمال الصهاينة البربرية « وما إلى ذلك، وسموا ثمرة الصبار بـ» تين البربر « (Agricultural terminology) .

ولقد كانت، من جهة الأمازيغيين في القديم، ردود فعل على ما سموا به بعد الفتح الاسلامي من التسميات، فلقبوا العرب بـ » إكَزّام « المعاول، و«إكشوضن « الحطب، و» إزاكارن « الشّرط، جمع شريط، و«إخامخامن «الصُّحُلُ. وكان الأمازيغيّ يُوَرّي عن إشعار القوم أن جليسهم العربيّ يفهم » البربرية «بقوله » هات يتشا يوجضم «!لقد أكل الهندباء!

أصل إمازيغن.

كتب الكثير في هذا الباب، وملخص ما كُتب أن المؤرخين العرب كادوا يجزمون، في العصر الوسيط، أن» البربر «من أصل يماني، أي من » العرب العاربة «الذين لم يكن لهم قط عهد بالعجمة، وعلى نهجهم سار المنظرون للاستعمار الفرنسي الاستيطاني في القرن الماضي وأوائل هذا القرن، فأخذوا يتمحلون البراهين على أن» البربر «أوربيو المنبت، خاصة الشقر والبيض منهم. ومن الواضح أن الحافز في الادعاءين كليهما سياسي، سواء أكان صادرا عن حسن نية أم كان إرادة تبرير للاستيطان. ومع تراجع الاستعمار الاوربي عن أفريقية الشمالية، أخذت هذه المسألة العلمية تفرض على الباحثين كل تحفظ لازم، لاسيما تجاه المصادر المكتوبة ما لم تدعهما معطيات أخرى أكثر ضمانا للموضوعية. وقد عُمل بجد، خلال الأربعين سنة الاخيرة، على استغلال الامكانيات الاركيولوجية والانثروبولوجية واللسنية في البحث عن أصل الأمازيغيين، أو عن اصول المغاربة على الأصح. والنتائج الأولى التي أفضت إليها البحوث أن سكان أفريقية الشمالية الحاليين، في جملتهم لهم صلة وثيقة بالانسان الذي استقر بهذه الديار منذ ما قبل التاريخ، أي منذ ما قُدر ب 9.000 سنة، من جهة، وأنّ المد البشري في هذه المنطقة،

كان دائما يتجه وجهة الغرب انطلاقا من الشرق، من جهة أخرى، (Berbères, Camps 44,).

وبناء على هـذا، يمكن القول إن من العبث أن يبحث لـ» البربر «عن مواطن أصلية غير التي نشأوا فيها منذ ما يقرب من مائة قرن. ومن يتكلف ذلك البحث يستوجب على نفسه أن يطبقه في التماس» مواطن أصلية «للصينيين، مثلا، أو لهنود الهند والسند، أو لقدماء المصريين، أو لليمانيين أنفسهم وللعرب كافة، ليعلم من أين جاؤوا إلى جزيرة العرب. وكل ما يمكن تأكيده اليوم، فيما يرجع للقرابة القديمة المحتملة بين إمازيغن واليمانيين، يكمن في قرائن ثلاث :

أ- عدد لابأس به من أسماء الأماكن التي توجد على الطريق البري الواصل بين المغرب الكبير وبين اليمن عبر القارة الافريقية، لها صيغ أمازيغية واضحة ولبعضها مدلولات في اللغة «البربرية». منها في صعيد مصر: أبنو، وأسيوط، وأخميم، وتيما، وتالا، وأصوان (أسوان)، وتوشكا... وفي شمالي السودان : تاراكَما، وأتبارا، وتيمرايين... وفي إيريتريا : أكسوم، وأسمارا، وأكَولا، وأكَوردات أو أكَورضاد... لكن، لا يوجد في اليمن نفسها، حسب ما هو مرسوم في الخرائط العادية، أسماء أماكن من هذا القبيل، إلا اسم جزيرة «أنتوفاش». أيرجع تسلسل الاسماء السالفة الذكر على الطريق القارية الرابطة بين افريقية الشمالية وبين اليمن الى عهد هجرة قديمة تركت آثارها في الاصقاع التي عبرتها؟ أم يرجع الى قرابة بين اللغة الامازيغية وبين المصرية القديمة واللغات الكوشية ؟

ب- لقد عثرت شخصيا على عدد من الالفاظ العربية التي قال بشأنها صاحب» لسان العرب« إنها» حِمْرية «أو» يمانية«؛ وهي ألفاظ لها وجود في الامازيغية، إما بمدلولها »الحِمْيَري «وإما بمدلول معاكس، وكأنها انقلبت الى أضدادها. لكن عدد هذه الألفاظ قليل لا يسمح بجزم في الموضوع. الا اذا تمت دراسة مقارنة ميدانية بين اللهجات الأمازيغية واللهجات اليمانية الحالية من حيث معطياتها المعجمية والصرفية والفونولوجية.

ج- بين حروف » تيفيناغ«، القديمة منها والتواركَية، وبين حروف الحميريين، شبه ملحوظ في الاشكال، لكنها لا تتقابل في تأدية الأصوات، إلا في حالتين اثنتين بتجاوز في التدقيق (مراسلة شخصية بيني وبين الباحث الفرنسي «كريستيان روبان، «Christian Robin، محرر الفصل الخاص بحضارة جنوبيِّ الجزيرة قبل الاسلام في «l'Arabie du Sud»).

ولعل طريق البحث في هذا الموضوع سيختصر في العقود الاولى من القرن المقبل، أو قبلها بقليل، لأن وسائل المقارنة الانثروبولوجية بين الشعوب أصبحت جد دقيقة بفضل الاكتشافات الاخيرة التي حققها العالمان» جان دوصي، «Jean Dausset و«جان بيرنار، «Jean Bernard المتخصصان في فحص الكريّات الحمراء على مستوى أشكال سطوحها. ولقد تمكن هذان العالمان من اقتفاء آثار شعوب هاجرت مواطنها الاصلية منذ خمسة عشر ألف سنة (Le sang et l'histoire)

الأمازيغيون في
العصر التاريخي القديم
وما قبل الاسلام

1_ اســـتمرارية تعرض المواطـــن الأمازيغية للهجمات الخارجية :

لا يعتقـد أن مــن بــين الامم أمة لــم تتعرض قــط للهجمات الخارجيــة. ولا يعتقــد أن من أصقــاع المعمور ما لم تتــوال عليه دفعات الاســتعمار البشــري إلا ما كان منها قاحــلا لا خير فيه، أوغير قابل للاستيطان من جراء مناخه واختفاء تربته تحت الجليد. لكــن تتابع الهجمات الخارجية على مواطــن الأمازيغيين في جل حقب التاريخ قد لفتت انتباه المؤرخين. ولعل سبب تعرض »البربر «لهــا راجع لعاملــين متفاعلــين. أولهما أنه نشــأ على الضفة الشــمالية الشــرقية للبحر المتوســط حضارات ماديــة ازدهرت بفضل عوامل متعددة، فبادرت الشــعوب التي اســتفادت منها إلى الانتشــار خارج معاقلها مــزودة بعدتها وعتادهــا وبتجاربها. وثانيهمــا أن الامازيغيــين كانــوا، إذ أخــذت تلــك الشــعوب في الانتشــار، على حال من الضعف المادي والاجتماعي والسياسي،

له ما يبرره كما سنوضح من بعد؛ فاحتكرت تلك الشعوب فرص المبــادرة منذ البداية، وظل الامازيغيون في موقف المدافع على مر القرون.

ومن الطريــف ان يبدأ اتصال الامازيغيــين القدماء بالاجانب الأول الذيــن اســتأذنوهم فــي مســاكنتهم، بابتســامة مغرية ترضــت بها أميــرة فينيقية زعيمــا أو ملكا» بربريا«، حســب ما نقلته إلينا الأســطورة في بعض تفاصيلهــا (,Trois mille ans 30). كان ذلــك الزعيــم الملــك هو»ياربــاس، «Iarbas حســب ما رواه المــؤرخ اللاتيني» يوســتينوس، Iustinus «، فــي القرن الثاني الميــلادي، نقلا عــن غيــره (l'Afrique du Nord, 68). وكانت تلك الأميرة هي» أليســا، Elissa «الشــهيرة، المعروفة باسم» ديدون، Didon «أيضا. فإن كانت هذه الأســطورة تدل على شــيء، فإنما تــدل على أن الأجانــب الأول الذين قدمــوا أرض» البربر «قدموها مســالمين مســتضيفين، وعلــى أن مضيفيهم كانــوا في حاجة إلى معونتهم. وبالفعل كان الأمازيغيون في حاجة إلى وســطاء بينهم وبين غيرهم في التجارة وشــؤون البحــر. وكانوا في حاجة اليهم في مــا يصنع من الادوات والآنية والملابــس وغير ذلك. ومما لا شــك فيه أن الأمازيغيين عرفوا فينيقيين آخرين قبل »إليسا« ومرافقيها، وأنهم تعاملوا معهم في المبادلات. وما قدوم» ديدون «وتأســيس قرطاجة حوالي 814 ق.م إلا تكريس لعلاقات سابقة بــين مجتمع رعوي انتجاعي وبين وفود مــن التجار والصناع. لكن تأســيس قرطاجة وغيرها من المراكــز التجارية الفينيقية الأخرى على ساحلي افريقية الشمالية ستكون له مضاعفات لم يكن

الأمازيغيون يريدونها. ولم يتصرف القرطاجيون التصرف الكفيل بتلافي وقوعها، أو باحتواء مفعولها. لقد ظلت العلاقات طيبة بين القرطاجيين و«مضيفيهم «ما دام دورهم ينحصر في التبادل والمتاجرة. أي طوال ثلاثة قرون ونيف. ولما أخذت أنظارهم تتجه إلى الاراضي الداخلية، وصاروا يستعمرون المنطقة المحيطة بمدينتهم، تغير الوضع شيئا فشيئا، ابتداء من أواخر القرن الخامس قبل الميلاد. وليس من المجازفة أن يقال إن التعاون الأمازيغي القرطاجي، لو بلغ مداه في المجالين السياسي والحربي، كما بلغه في المجالين التجاري والثقافي، لغير مجرى التاريخ قليلا أو كثيرا.

لكن واقع الأمر هو أن التعايش السلمي انقضى عهده بسبب رغبة قرطاجة في التوسع خارج مجالها البحري الذي منحت إياه عن رضى. فنشبت بينها وبين الأمازيغيين تحرشات ابتداء من مطلع القرن الرابع قبل الميلاد. فحاصروها حصارا شديدا سنة 396 ق.م. واستغل الصقيليون كل فرصة لاغراء أحد الطرفين بالآخر (les Berbèrs, 44,45,46. نقلا عن Diôdoris وPolubios وغيرهما). وتطورت التحرشات الى عداء وتباغض. فثار على قرطاجة جيشها، المؤلف في أغلبيته من» البربر«، بقيادة » ماطوس، Mathos «سنة 241 ق.م. ولم تعد المياه الى مجاريها الا بعد ثلاث سنوات من التناحر. سيطرت إثرها قرطاجة على الموقف. فشارك الامازيغيون في الحرب ضد روما ـــ الحرب البونية الثانية ـــ وحقق حنّبعل، بفضل قوتهم الحربية، انتصاراته الخالدة، في شبه الجزيرة الايطالية. فلم يخف على الرومان دور»البربر «في تلك الانتصارات كما يشهد على ذلك

قول» تيتوس ليفيوس، «Titus Livius: »إن سيوف النوميديين هي التي فصلت الفصل النهائي في معركة قنّاية .» Cannae Les Berbers)، في صدر الكتاب). لكن الأحقاد بين الامازيغيين والقرطاجيين كانت قد تسربت الى أعماق النفوس: فاستغلها الرومان بحنكتهم المألوفة ووجدوا طريقهم إلى الاحتلال التدريجي لمناطق افريقية الشمالية المحاذية للساحل المتوسطي وما اتصل بها من الاراضي الداخلية، كما هو معلوم.

وهنا تجدر الاشارة الى أن الجزء الشرقي من الساحل لم يسلم من التدخل الأجنبي. ففي القرن الخامس قبل الميلاد، بينما كانت قرطاجة تنشر نفوذها في غربي الحوض المتوسطي، كان اليونانيون يتحيّفون الاراضي الأمازيغية قطعة قطعة في الضفة الجنوبية المتقابلة مع بلادهم. فقاومتهم القبائل الامازيغية الليبية» ناسامونيس «بقيادة ملكها ـــ أو زعيمها ـــ «أدريكان، .«Adrican لكنهم مع ذلك، تمكنوا من احتلال مواقع بحرية، في ما هو معروف الآن بـ» برقة « وأسسوا مجموعة من الموانئ أسموها» المدن الخمس، Pentapolis « فازدهرت حضارتهم فيها ازدهارا ملحوظا، لا سيما بعدما عزز الاسكندر المقدوني، بفتوحاته، مكانة اليونان عامة، في شرقي حوض المتوسط. ومن اسماء» المدن الخمس «علق بذاكرة التاريخ، بوجه خاص، اسم »قورينا، Cyrenae «. ثم اسم» بيرينيشي، Berenice «التي كانت مشيدة على موقع» بنغازي « الحالية. وفي» قورينا «ولد الشاعر اليوناني المشهور» كاليماخوس، «Kallimakhos الذي تغنى في احدى قصائده بجمال» الليبيات الشقراوات«. ولعل تعامل أولئك

اليونانيين مع القبائل الأمازيغية المحيطة بـ «المدن الخمس «كانت تجارية قبل كل شيء. لكن، على ما يظهر، قد تم بين العنصرين، الأمازيغي واليوناني نوع من التمازج الثقافي الديني، بما أن عبادة الاله الليبي »أمونAmmon «، الذي كان معبده الأكبر بواحة» سيوا«، تسربت، على طريق» أرض قورينا، Cyrenaica «إلى القارة الأوربية، وانتشرت هناك، حتى في الأوساط الراقية (Histoire générale ... I, 347). وذاع صيت» آمون «الليبي إلى درجة أن مستشاري الاسكندر المقدوني أشاروا عليه بان يفتح» سيوا « كي يستتب له الأمر في مصر، فعمل بمشورتهم، وقطع بأثقاله مسافة ستمائة كيلومتر عبر الصحراء، ليعوج مدة ما بتلك الواحة النائية الصغيرة. وقد بلغت أصداء تلك الزيارة جزيرة العرب نفسها، كما يشهد بذلك قول الشاعر أمية بن أبي الصلت (لسان العرب، مادة : ثأط) :

بلغ المشارق والمغارب يبتغي ***** أسباب أمر من حكيم مرشد

فأتى مغيب الشمس عند مآبها ***** في عين ذي خلب وثأط حرمد

ومما هو قمين بالذكر أن سكان واحة» سيوا «كانوا حتى الاربعينات أو الخمسينات من هذا القرن يتكلمون اللغة الأمازيغية. لقد خصص» المستمزغ «الفرنسي» لاووست،«Laoust كتابا للتعريف بلهجتهم، ولا يستبعد أن يوجد من بينهم، بكثرة أو بقلة، من لا يزال يتكلمها حتى الآن.

وبعد هذا الاستطراد، الذي كان ضروريا، نعود إلى صلب الموضوع. لقد استرعى انتباه المؤرخين أن» البربر «كانوا باستمرار يتحالفون مع كل مستعمر» طارىء «رغبة في التخلص من

المستعمر» المقيم«. حالفوا أو حالف بعضهم روما للتخلص من قرطاجة، ثم حالفوا الوندال للتخلص من روما (,Les Berbers 77. نقلا عن القديس أغوستينوس، وعن جيبّون Gibbon)، وشاركوهم في تخريب» المدينة الخالدة «وتخريب مدن أخرى إيطالية، وقاسموهم الأسلاب (les Berbers, 85، نقلا عن فيكتوريس فيتنسيس، Victoris Vitensis، وهو Victor de Vite المولود بقرطاجة سنة 455 م). ثم لم يلبثوا أن عادوهم وحاربوهم، انطلاقا من جبال »أوراس« بوجه خاص، وكبدوهم» أشنع هزيمة تكبدوها في تاريخهم «حسب ما رواه » بروكوبيوس، Procopios (les Berbers, 87»). ولما هاجم البيزانتيون مواقع الوندال في افريقية الشمالية، وهي مواقع غير ذات أهمية (les Berbers)، لزم الامازيغيون الحياد أول الأمر إلى أن انهزم أعداؤهم »القدماء«. فواجهوا إذّاك أعداءهم» الجدد«. ونظرا لأهمية المواجهة الطويلة الشاقة بينهم وبين الرومان، ثم بينهم وبين البيزانتيين، ورثة الرومان، سنحلل المسألة بشيء من التفصيل فيما بعد، لأن ذلك يقتضي معرفة ما لأوضاع الأمازيغيين السياسية قبل أن يدهم الاستعمار الروماني بعض أراضيهم. أما الوندال فلم تمكث جحافلهم في الشمال الافريقي مدة طويلة، ولم تتأثر البلاد بمجيئهم تأثرا حضاريا يذكر.

2_ سلالات أمازيغية تحكم مصر القديمة قرونا :

لم يتأت للأمازيغيين، قبل إسلامهم، أن يفتحوا اراضي أجنبية ويستعمروها، كما تأتى ذلك لغيرهم من الامم، وللرومان خاصة. لكن سلالات منهم وجدت مع ذلك سبيلا غير مباشر

للاستيلاء على الملك في أعظم مملكة عرفها التاريخ، وأطولها عمرا، ألا وهي مصر الفرعونية. فتعاقب على أراضي الكنانة فراعنة» ليبيون « لعدة قرون، ابتداء من القرن العاشر قبل الميلاد. تم ذلك بعد تسلسل أحداث شهدتها مصر فيما بين سنة 1227 وسنة 935 ق.م.

لما أوقف الفرعون» راعامسيس «الثالث الهجمات الخارجية التي تعرضت لها مصر، في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، لم يتمكن من ايقاف الزحف الأمازيغي (الليبي) إيقافا كاملا. فاستوطنت قبائل»بربرية «وادي النيل، وصارت تمد الجيوش الفرعونية بالجنود. وفي أواخر الالف الثاني قبل الميلاد كان عدد من أولائك» المرتزقة «قد تبوؤوا مناصب عمال في الاقاليم، وكانت الأوضاع السياسية متردية. فلم يوشك القرن الأول من الألف الاول أن ينتهي حتى استولى الزعيم الليبي» شيشونق.«Chechonq (ولعله في الواقع شيشونغ) على العرش المصري ودشن عهد الأسرة الفرعونية الثانية والعشرين، سنة 935 ق.م، واتخذ» بوباستيس، «Bubastis عاصمة له. وعلى يده عادت الاوضاع في وادي النيل الى نوع من الاستقرار، فرد لمصر نفوذها السياسي في الشام بالاستيلاء على» أوكَاريت.Ugarit «، وجبيل Byblos . و«أورشليم«، بيت المقدس الحالي. وقد ظل الحكم متوارثا بين الأسر الأمازيغية الليبية الى حوالي 715 ق.م، وكان آخر فرعون أمازيغي» صريح «ساد مصر هو»تافناخت.«Tafnakht من الأسرة الرابعة والعشرين. فخلفه فراعنة» هجناء «(أمازيغيون إثيوبيون) عندما دُشِّن عهد الأسرة

الخامسة والعشرين (Histoire du développement ... II, 26).

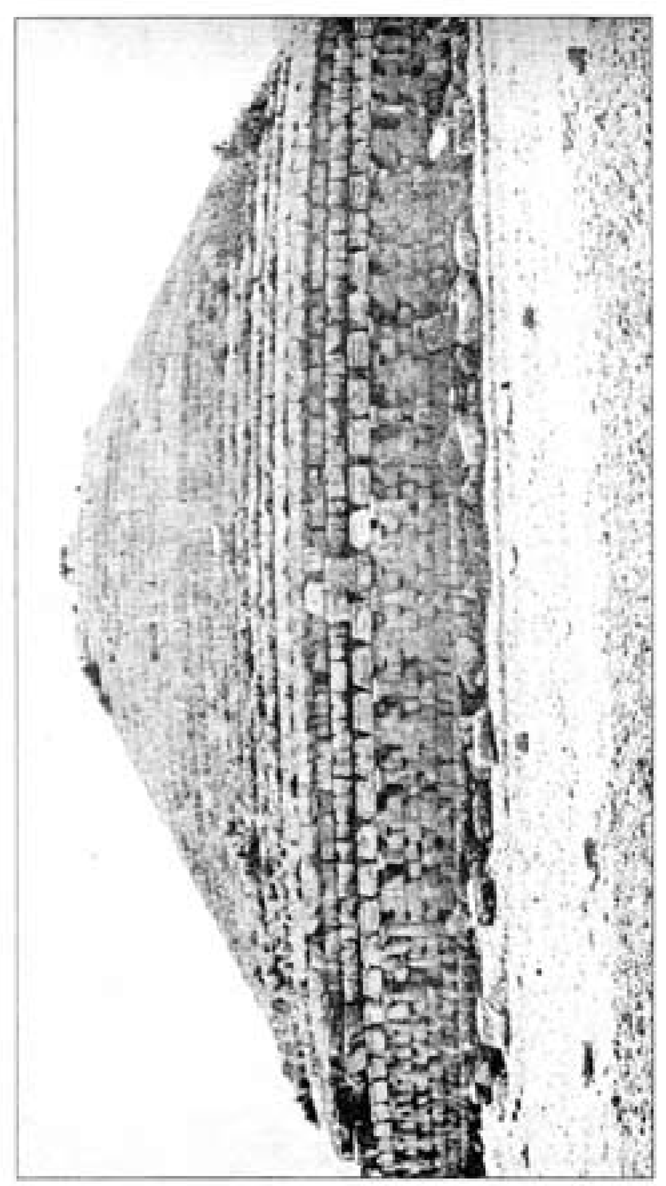
3 - ممالك أمازيغية قديمة تحاول جمع الشمل :

تخبرنا المصادر المصرية بأنه كان للأمازيغيين الليبيين ملوك، في أواخر الالف الثاني قبل الميلاد. وتشير بعض المؤلفات اللاتينية الى أن كلا من الملكين الأمازيغيين يارباس Iarbas ويوفاسIopas (أو: يوفان Iopan) رغب في الزواج بالأميرة الفينيقية أليسا، لكن لابد من التساؤل بشأن ذلك : أكان ملوك المصادر المصرية ملوكا حقا، أم كانوا زعماء قبائل، يتكلمون باسم قبائلهم؟ ثم، ما هو الجانب الاسطوري وما هو الجانب التاريخي في ما روي بخصوص خطبة »يارباس «و» يوفان «لأليسا؟ وإنما من المحقق أنه كان بشرقي ليبيا، في غضون القرن الخامس ق.م، ملك يسمى» أدريكان، Adrican «، بشهادة من هيرودوتوس Herodotos. ومن المحقق أيضا أنه كان لبعض أراضي نوميديا ملوك، ولبعض أراضي موريتانيا ملوك، ابتداء من القرن الرابع الميلادي ق.م. ويعتقد جل المؤرخين أن الملك» أيليماس، Ailimas «هو الذي أسس دولة »المازيليين «التي ينتمي اليها» ماسينيزا«. روى عنه» ديودوروس «أنه قتل في معركة خاضها ضد طاغية» سيراقوسا«.» أكَاثوكليس «حوالي سنة 310 ق.م (l'Afrique du Nord... 68,71).

أما في القرن الثالث ق.م، فقد أخذت معالم الممالك الأمازيغية تتضح، بحيث يمكن المؤرخين أن يدرسوها حتى في بعض مظاهر سيادتها. ومن ملوكها الأول الذين حاولوا بجد

أن يجمعـوا شـمل الأمازيغيـين» سـيفاكس، أو سـيفاقس، أو سـيفاغس، Syphax « و»ماسـينيزا، «Masinissa و»باكَا، Baga «.
عـاش هؤلاء الملوك الثلاثة في زمن واحـد، فـي أواخر القرن الثالث ق.م. حالـف أولهـم قرطاجة وحاربها ثانيهم بسـند من ثالثهم.
كان سـيفاكس ملكا على قبائل» ماسايسولي «التي لم يحدد التاريـخ مواطنها بالضبط، وكان» ماسـينيزا «ملكا على قبائل »مازيلا «(أو» ماسـيلا«) النوميدية، وكان» باكَا «ملكا على جزء مـن اراضي موريتانيا يمتـد من المحيط غربا الى نهر» مولوتشـا « شـرقا، ومن البحر المتوسـط شمالا الى سـفوح الاطلس جنوبا فيمـا رُجِّح. لم يكن للملك »سـيفاكس« عقب فـي الملك، لأن» ماسـينيزا «هو الذي اسـتولى على مناطق نفوذه بعد أن هزمه وأسـره. أما »بـاكَا «الموريتاني فقد ورثت عرشـه أسـرة» بوكُّوس «التي لا يدرى أهي من سـلالته أم من غير سـلالته، لأن الحقبة التي تفصل عهد» بـاكَا «عن عهد »بوكُّوس «الأول تناهز القرن، ولا يعرف شيء عما حدث فيها.

فبينمـا كانت كل مملكة من هذه الممالـك الثلاث تحاول جمع الشـمل في المنطقة الخاضعة لنفوذها، كانت الحروب تتوالى بين رومـا وقرطاجة. فنتج من ذلـك أن كلا الطرفـين المتناحرين صار يغري الأمازيغيين بالتحالف معه، ويسـتغل التنافس الذي يطبع علاقـات الملوك بعضهم ببعض. وفي أثنـاء الحرب البونية الثانية اسـتطاعت روما، بفضـل معرفتها لمعطيات المجال السياسـي» الافريقي«، أن تكسـب صداقة أشـد الملوك حنقا على قرطاجة، وهـو» ماسـينيزا«، وأن تتحالـف معه. فكانت تلـك المحالفة هي



نموذج أول من الأضرحة الأمازيغية التي يرجع عهدها إلى ماقبل الميلاد وهو ضريح "ميدراسن" بالجزائر

الثلمة الأولى التي تسربت منها الهيمنة السياسية الرومانية، شيئا فشيئا، إلى مراكز الحكم في أقطار المغرب كلها. ذلك أن روما اتخذت جميع أساليب الترغيب والترهيب منهجية لها لإغراء الملوك الأمازيغيين بعضهم ببعض، في مرحلة أولى، ثم أزالت القناع عن وجهها في مرحلة ثانية وحاربت كل من امتنع أن يكون عميلا لها، واستمرت على تلك الخطة ما يقرب من قرنين، موسعة نطاق سيطرتها في اتجاه الغرب الى أن قضت على الممالك كلها، ولم تُبق، بصورة شكلية، إلا على عرش موريتانيا، فأجلست عليه الأمير الأمازيغي الشاب يوبا بن يوبا الذي كانت قد أسرته، وهو صبي، بعد التخلص من أبيه. فظل يوبا لها عميلا الى أن توفي. فسار ابنه بطوليمايوس على نهجه، الى أن استدرجه ابن خالته، الأمبراطور الروماني» كاليكولا. Caligula «الى حضور احتفالات رسمية بمدينة» ليون« الغالية، حيث أمر باغتياله، سنة 40 م. وبموته انقرضت الممالك الامازيغية القديمة. جدول بتتابع السلالات الملكية الأمازيغية القديمة، في الزمان، وبمطاردة الرومان لها في المكان

4 - نظرة عن أعمال الملوك القدماء البارزين.

أ- الملك سيفاكس المسايسولي، المتوفى سنة 203 ق.م.

لم يستطع المؤرخون ضبط حدود مملكته، فرجحوا أنها كانت لملكه عاصمة شرقية، هي» قيرطا، أو شيرتا.«Cirta وعاصمة غربية، حيث كان يقيم، هي» سيكَا، «Siga . لعل» سيفاكس «لم يكن في أول أمره سوى زعيم قبيلة تغلبت على قبائل أخرى، ثم

حمل التاج وضرب العملة باسمه ونظم الجيش، واستعان بابنه » أورمينا.Vermina «في تسيير الشؤون الحربية. ومع أنه تأثر الى حد بتقاليد اليونان السياسية، كان يعتمد في ممارسة سلطته على مساعدة زعماء القبائل. كانت له علاقات ديبلوماسية مع كل من قرطاجة وروما. كانت لغة الحياة اليومية والتخاطب في مملكته هي الأمازيغية، وكانت لغة المكتوبات الرسمية هي الفينيقية، وكانت لغة الثقافة هي اليونانية. ولعل اسمه هو المقصود فيما كتبه ابن خلدون عن أصل» البربر «إذ قال إن جدهم» سفك«. يعزز هذا الفرض أن» بلوتارخوس.Plutarkhos «زعم شيئا من هذا القبيل (l'Afrique du Nord..., 85).

في خضم الحرب البونية الثانية كانت كل من روما وقرطاجة تترضى» سيفاكس «وتحاول أن تجره إلى جانبها. فسعى للاصلاح بين الطرفين ولم يفلح، بسبب تعنت روما. فاختار جانب قرطاجة، بعد زواجه بإحدى بنات أعيانها.» صوفونيسبا«، علما منه أن انتصار روما لن يكون له على» أفريقية «الا عواقب وخيمة. لكن الرومان اتجهوا الى خصمه ومنافسه» المازيلي « الملك الشاب الطموح» ماسينيزا «وحالفوه. فحارب «سيفاكس « وهزمه وأسره وسلمه لحلفائه. وورث مملكته. ولعل الأمير»أورمينا.Vermina «عاش بعد أبيه بضع سنوات، كما يدل على ذلك العثور على عملة فضية تحمل اسمه.

ب - الملك» ماسينيزا «المازيلي (240 - 148 ق.م).

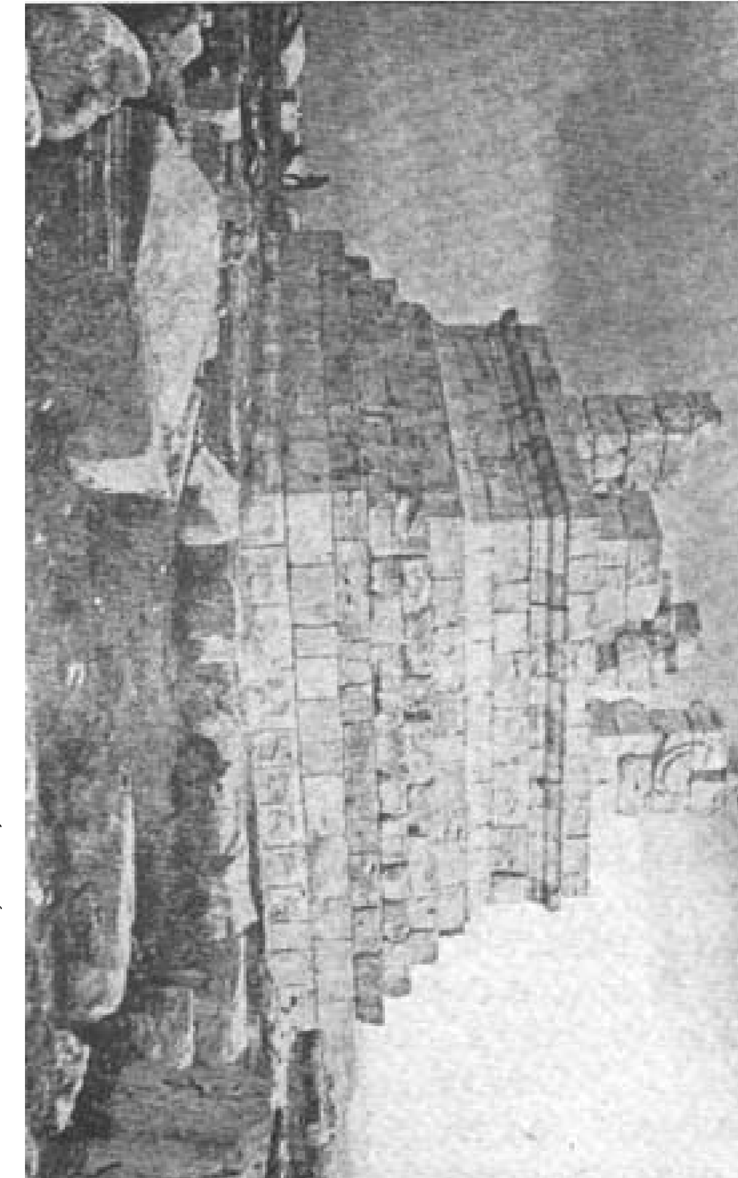
برزت شخصية هذا الملك أول ما برزت في كفاءته الحربية.

لقد استطاع أن يهزم» سيفاكس «الماسايسولي، ثم مكن الرومان من الانتصار على أمهر جنرال عرفه التاريخ القديم، ألا وهو »حّنعبل «القرطاجي، وذلك في معركة» زاما «الشهيرة، سنة 202 ق.م. (la Carthage punique, 284,85, Gsell, III, 268,280...). لقد كان سبب بغضه لقرطاجة هو تمسكه بمبدإ» أفريقية للأفارقة! «. ومما أثار حفيظته ضدها بشكل خاص، حسب ما روي، هو تزويج القرطاجيين «سيفاكس» مخطوبته «صوفونيسبا». والواقع أن جيرانه القرطاجيِّين كانوا متواطئين مع خصمه المساسولي قصد القضاء على ملكه. فلم يجد بدا من محالفة الرومان، مع إضمار غايته القصوى في نفسه، وهي إنشاء مملكة أمازيغية موحدة مستقلة عن كل نفوذ أجنبي، لا سيما أن اتفاقية الصلح بين روما وقرطاجة (201 ق.م.) كانت تنص على أن من حقه أن يعمل من أجل استرجاع جميع الأراضي التي كانت بقبضة أجداده، في غير تحديد لتلك الأراضي. وإن لم يوفق فيما بعد، فلسببين اثنين: أولهما أنه شاخ وهرم ومات قبل أن تنهزم قرطاجة انهزامها النهائي. وثانيهما أنه لم يهيء أبناءه لمواصلة عمله بعد وفاته، بل ارتكب خطأ سياسيا باعتماده على الرومان وتنصيبهم أوصياء على عرشه بعد وفاته. لا شك أن حقده» القديم «على قرطاجة هو الذي دفعه إلى ذلك، وأنه حينما أقدم على فعله ذلك كان خائر القوى، عقليا وبدنيا، يعيش مع ذكرياته أكثر مما يعيش مع الواقع، بما أنه توفي عن سن جاوزت التسعين. ولاشك أن الرومان كانوا على علم من نواياه، وأنهم راوغوه طيلة حياته حتى يظل وفيا لهم. وقد قدر المؤرخون

أنه لو لم يدركه الأجل قبل عزم روما على هدم قرطاجة، لبذل قصارى جهده لانقاذها من الخراب، كي تكون قاعدة لملكه. وذلك ما كان الرومان يخشونه (Gsell, III, 354). فقوَّضوا العاصمة البونية عن آخر مبانيها، وقسموا الملك بين أبناء» ماسينيزا «الثلاثة حتى يضعف شأنهم، وشرعوا في تطبيق خطتهم الرامية إلى الاحتلال المباشر وإلى الاستعمار الاستيطاني للمناطق» النافعة «في افريقية الشمالية.

أما فيما يرجع لتنظيم المملكة المازيلية، فقد كان»ماسينيزا «نموذجا من النماذج الأمازيغية القديمة كما وصفناها بصدد الحديث عن» سيفاكس «. الا أنَّ بقاءه على العرش مدة طويلة مايقرب من ستين سنة : من حوالي 205 الى 148ق.م مكنه من إنجاز أعمال لم يسبقه إليها أحد.

وسع» ماسينيزا «حدود مملكته، وجعلها تمتد من وادي» مولوتشا «غربا الى أراضي طرابلس الحالية شرقا، ولم يفلت من قبضته الا مملكة موريتانيا وما تبقى لقرطاجة من ممتلكات حول المدينة، بعد انهزامها سنة 202 ق.م. وقد اضطره هذا الاتساع في رقعة الملك الى التجوال المستمر عبر الاقاليم، على رأس جيوشه، والى مواصلة مساعيه الديبلوماسية من اجل إغراء روما بقرطاجة. كان يحمل لقب» أكَليد «(أي الملك باللغة الأمازيغية). وقد حاول هو أيضا ان ينظم مملكته على النمط الاغريقي المقدوني، فلبس التاج وحمل الصولجان، حسب ما يظهر في النقود التي ضربت له في عاصمته» قيرطا، أو شيرتا «(قسنطينة الحالية فيما رجحه المؤرخون حتى الآن).





بقايا نموذج ثان من الأضرحة الأمازيغية التي يرجع عهدها إلى ماقبل الميلاد، توجد بالجزائر في المكان المسمى بالخروب.

كان يحافظ على تماسك أطراف مملكته بالوسائل السياسية التقليدية، اي المصاهرات والتعاهد مع زعماء القبائل، وإيقاظ المشاعر الدينية، وبالحرب عند الضرورة (l'Afrique du Nord,) 109, 110 .). فاستطاع بذلك أن يجبي الجبايات وأن يفرض على رعاياه نوعا من الخدمة العسكرية، على غرار ما هو مألوف عند جميع الأمم ذات البنى الاجتماعية القبلية. وشجع السكان على تعاطي الزراعة وعلى الاستقرار في السكن. وأنشأ اسطولا حربيا واسطولا تجاريا، وفتح أبواب مملكته للتجار اليونانيين. وفي عهده انتشرت الثقافة البونية بين الأمازيغيين أكثر من ذي قبل، مع معاداته لقرطاجة. وقدم العاصمة» قيرطا «عدد من الأدباء والفنانين اليونان، وجعلوا منها مدينة راقية في حياتها المادية والفكرية. كان الملك نفسه معجبا بالحضارة اليونانية، وكان يعمل بتقاليد الملوك اليونانيين. فأكل في الآنية الفضية والذهبية، واتخذ جوقة من الموسيقيين الاغريق. ولاشك أن التجار اليونانيين كانوا يروجون بضاعتهم بفضل ولوعه بكل ما هو يوناني. وقد نسب اليه بعض المؤرخين إحداث الأبجدية الأمازيغية القديمة (تيفيناغ)، مع انها أقدم بكثير مما توهموه.

ج- الملك» بوكّس الاول، Bocchus I « الموريتاني.

كانت مملكته أول الامر هي التي ورثها عن عهد»باكا «السالف الذكر. لكنه اغتنم فرصة انهزام»يوكَرتن «أمام الجيوش الرومانية واستولى على الجزء الغربي من مملكة المازيليين. وقد ألصق به التاريخ، كما كتبه المؤلفون اللاتينيُّون، تهمة الغدر بصهره وحليفه يوكَرتن المازيلي، ولا سبيل الى التعقيب على

حكمهم، نظرا لقلة المصادر.

ولا يُـدرى أيـن كـانـت عاصمة المملكـة الموريتانيـة في عهد بوكّـوس الاول، إلا أن بعـض المؤرخـين مـن المعاصريـن يعتقدون أن ذلـك الملك كان ينتقل بـين عواصم متعددة، وأنه بدون شـك استولى على مدينة» سيكَا،SIGA «المازيلية بعد انهزام» يوكَرتن «سـنة 105 ق.م. وعلى كل حال، كانت مملكته تحتضن مجموعة من المراكز الحضرية، نخص منها بالذكر تينجي (طنجة)، وتامودا ووليلي (وليلي ما قبل العهد الروماني).

مارس الملك بوكوس الأول» سلطته المطلقة «في حدود قدراته العسـكرية، وفي حدود التعامل مـع العصبيات القبلية. كان له مجلس شورى من الأقارب والأصدقاء وبعض زعماء القبائل. وكان لـه ديوان للكتابة ولتدبير شـؤون الجيـش وكان عضده الأيمن في العمليات الحربية هو ابنه» أولوكس، Volux « . كانت تساعده في الاتصالات مع الخارج، ومع روما خاصة، هيئة سـفراء من خمسة أعضـاء. وكانت له دار للسـكة. ومن أجل هـذا كله كان بوكّوس الأول يعتبـر نفسـه أعظـم ملك يوجـد على وجه البسـيطة، حسـب ما رواه »سالوستيوس،Sallustius « الروماني. توفي فيما بين 80 و70 ق.م.، فخلفه ابنه بوكَود الأول، ثم انقسـمت المملكة الى شـطرين، حكم أحدهما بوكّـوس الثاني، وحكم الآخر بوكَود الثاني. وفي سـنة 38 ق.م. تخلّص بوكّوس من شـريكه واسـتأثر بالملك. ولما توفي سـنة 33 ق.م. لم يترك عقبا يخلفه، فبسـطت روما نفوذها السياسي على موريتانيا، وولت عليها الأمير الأسير يوبا الثاني (25 ق.م.).

د - الملك» يوكَرتن، Yugurthin «المازيلي:

يوكَرتـن ابن غير شـرعي لماسـتانابعل بن ماسـينيزا. ألحقه عمه الملك» ميكيوسـا «بابنيـه» أمفسـال «و»أدربعل«. وجعله شـريكا لهما في إرثـه. وبعد وفاة» ميكيوسـا «حـارب» يوكَرتن «ابنـي عمه وتخلص منهما بالقتل علـى التوالي، وانفرد بالملك. ثم تصدى للرومان (112 ق.م). فظلت الحرب سجالا بينه وبينهم الى ان تخلى عنه حموه وحليفه الملك» بوكّوس «الاول الموريتاني، فأسره الرومان سنة 105 ق.م. وحملوه الى روما حيث سجنوه، ثم بطشـوا به في سجنه. وقد سجل التاريخ عن هذا الملك انه كان ذا حنكـة حربية نادرة، وانه كان من اشـد المقاومين الذين عارضوا رومـا في سياسـتها العدوانية التوسـعية، زمـان صولتها على ضفتي البحر المتوسط. ولذا تسبب صموده في هزات اجتماعية عنيفة اجتاحت القواعد الايطالية كلها. وللملك» يوكَرتن «قولة مشـهورة ندّد فيها بجشع الرومان عامة ونبلائهم خاصة. قال :» روما، ايتها المدينة المعروضة للبيع! أنت هالكة لو تجدين مشتريا! «وقد أرّخ لحربه مع الرومان الكاتب اللاتيني» سالوستيوس«.

هـ - الملك "يوبا الاول Yuba I"

فـي خضم الحـرب الاهلية التي نشـبت بين انصـار القائدين الرومانيـين »يوليوس قيصـر «و» بومبيوس،Pompeius «. شـعر الملك المازيلي يوبا الاول بان تمثال رأسـي برونزي للملك يوبا الثاني عثر عليه في أنقاض وليلي. قيصر، في حالة انتصاره، سيتشـدد في سياسـته الافريقيـة، وذلك لانـه كان لـه به سـابق معرفة.

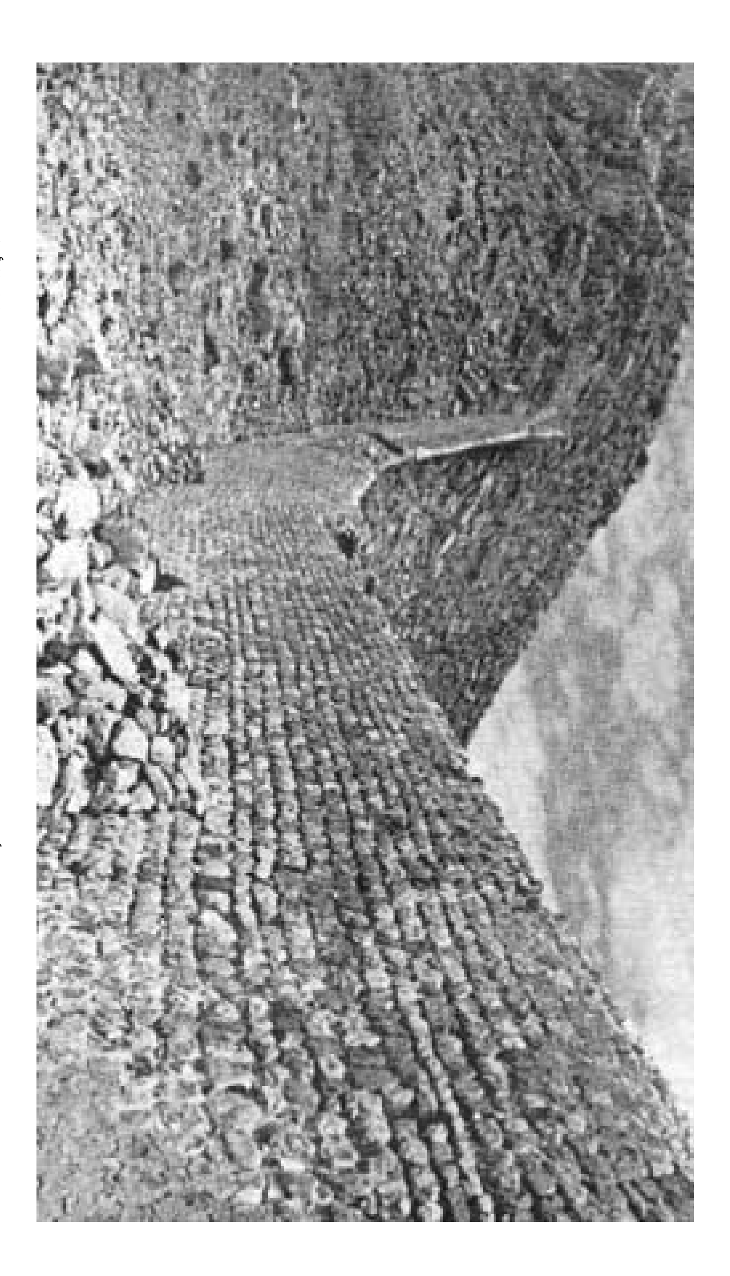
فحالف من اجل ذلك خصمه »بومبيوس«. بينما حالف الملكان المورتانيان بوكَود الثاني وبوكُّوس الثاني يوليوس قيصر. فلما كان النصر من حظ القيصريين، وجد يوبا نفسه معزولا عن جيشه وعن أسرته، فعزم على الانتحار بطريقة فريدة من نوعها، ذلك أنه دعا للمبارزة آخر رفيق وجده بجنبه، وهو قائد روماني، فتضاربا الى أن أردى كل منهما الآخر قتيلا (46 ق.م.).

وما روي عن هذا الملك انه كان يراود فكرة توحيد الاراضي الامازيغية كلها تحت رايته، وانه كان شديد الغيرة على سيادة مملكته، بحيث انه كان، مثلا، يمنع على الضباط الرومانيين لبس البرنس الاحمر، لأن البرنس الاحمر كان هو شعار ملكه، لا يلبسه الا هو. كان ابنه وسَميُّه» يوبا «حين وفاته، طفلا صغيرا عمره بين خمس وسبع سنوات، أسره» يوليوس قيصر« وحمله الى روما، حيث نشأ في كنف بلاط الامبراطور»أوغوستوس «خلف قيصر، وهو الذي نصبه ملكا على موريتانيا.

5 - المقاومة الشعبية تنغص على الرومان والبيزانتيين مُقامهم في الربوع الامازيغية.

لما لم يوفق الملوك في ايقاف الزحف الاستعماري الروماني، لا من جراء ضعف حربي، ولكن من جراء ضعف في التعامل السياسي مع الاحداث راجع بدون شك الى المنافسات الداخلية، أخذت ظاهرة المقاومة الشعبية تبرز للوجود. وليس من المصادفة أن يحدث ذلك في العقد الرابع من القرن الاول قبل الميلاد، بل حدث في الوقت المناسب، اي بعدما اختفى عن الساحة »الافريقية

«كل ملك مستقل برأيه قليلا او كثيرا. أخذت اذاك القبائل تحارب الرومان بصورة تلقائية. ففي الحقبة الممتدة من سنة 34 الى سنة 19 ق.م. دارت رحى الحرب بين الطرفين خمس مرات (les Africains VII, 299). ثم توالت المعارك طوال النصف الاول من القرن الاول الميلادي. فخرج من صفوف المقاومين زعماء وقواد حرب خلّد التاريخ أسماءهم، أمثال »تاكفاريناس،Tacfarinas «المنتمي لقبيلة »موسالاميس،Mulalames « النوميدية، »أيديمون، «Aedemon ، احد عتقاء الملك» بطولاميوس« . ولم يكف روما مؤونة الحرب في المواطن الامازيغية كونها تولّي على عرش موريتانيا ملكا ربته في أحضانها. فمن المفارقات أن رعايا »يوبا «الثاني كانوا يقدسونه ويمقتونه في آن واحد (les Berbers, I, 49, 50). استمرت المقاومة طوال عهد الاحتلال، فشن الامازيغيون الغارات على المستعمر حيثما وجد، حتى في الأندلس (les Berbers, I, 56). واضطر الامبراطور» أدريانوس،Adrianus «. في أوائل القرن الثاني الميلادي (122 م.) الى زيارة مواقع المواجهة »ليحارب الموريتانيين، «pour combattre les Maures (les berbers, I, 55, 56). لكن روما لم تجد حلا لقضية المقاومة الامازيغية (Rome et les Berbères, 176)، فاستمرت الاوضاع على ما كانت عليه (lesBerbers, I, 55,77,...). الى ان تعاون» البربر «مع الوندال وقوّضوا أركان الوجود الروماني في» افريقية الشمالية«. ثم خرّبوا روما نفسها. وما يجدر التنبيه له هو ان الامبراطور الروماني» الافريقي «الاصل »كاراكالاّ، «Caracalla منح شعوب المستعمرات حق المواطنة الرومانية (212 م.). فلم يفد ذلك روما شيئا في



بقايا في تونس من الجدار الأمني "الليمس" الذي كان الرومان يحتمون به من هجمات القبائل الأمازيغية.

تعرضها للهجمات الامازيغية، والسبب هو ان القبائل الاشد بأسا لم تنضو تحت لواء الامبراطورية، بل لاذت بالجبال والصحاري خارج المنطقة المحصنة بقلاع »الليمس،«limes وجدرانه وخنادقه التي لا نزال نشهد بقايا بعضها على طوال الخط الممتد بين الرباط وتازة.

وبالتحصين أيضا ضمن البيزانتيون بقاء مهمشا لمواقعهم على الساحل المتوسطي الافريقي، لمدة قرن، دون أن يتمكنوا من التوغل في الاراضي الداخلية كما فعلوا في مصر والشام وآسيا الصغرى وإيطاليا. ضمنوا لها البقاء، دون ضمان الأمن. كانوا عادة لا ينتقلون من موقع الى موقع إلا على طريق البحر. ولما امتدت أنظار الروم الى بعض اراضي أفريقيا ونوميديا الشرقية، نشطت المقاومة الامازيغية نشاطا كبيرا بقيادة زعماء من قبائل» أوراس«، وقبائل» اللواتة «الليبية امثال »يابداس،Iabdas «و«أنتالاس،Antalas «و»كاركاسان، «Carcasan، فانهزم البيزانتيون عدة مرات، مع لجوئهم الى الغدر في غير مناسبة، وقتل منهم عدد من القواد العسكريين الكبار، فاضطروا مرارا الى أداء الفدى وتقديم الهدايا النفيسة. فبالاضافة الى المناوشات التي تحدث بين الطرفين باستمرار، قد دارت بينهما معارك طاحنة سنة 537 م، وسنة 543 م، وسنة 550 م، وسنة 563 م. فبرز في تلك المعارك قواد عسكريون أمازيغيون مهرة امثال» كزمول،Gazmul « الذي هزم بالتوالي ثلاثة جنرالات وقتلهم. وكان المقاومون كلما انهزموا لاذوا بالجبال أو الصحراء.

وكان الأسرى منهم يتحدون الجنود الروم ويسبُّون الامبراطور

وهم مصفَّدون. فأدرك القواد البيزانتيون أن» البربر لا يمكن ان يهزمهم الا البربرا! « فاستدرجوا قبائل أوراس الى التحالف معهم بقيادة» يابداس « و»إفيسدياس.Ifisdaias «. فقتل» أنتالاس«. وفي سنة 597 م خادع الروم» البربر «وغدروا بهم غدرا شنيعا، وهزموهم. ثم تواصلت المناوشات الى ان جاء الاسلام (les Berbers, 92...108).

الأمازيغيون عند الفتح الاسلامي وبعد إسلامهم.

1 _ الامازيغيون والفتح الاسلامي:

بعدما يكون المرء قد اطلع على ردود الفعل التي كانت تصدر، قبل الاسلام، عن» البربر« كلما هوجموا في عقر دارهم، يكون قد أدرك الاسباب التي من أجلها لم تفتح» أفريقية الشمالية « كاملة للدين المحمدي إلا بعد لأي وعناء. كان من الطبيعي أن ينظر الأمازيغيون إلى الفاتحين الاول نظرة المغزوِّ للغازي، لا سيما أن العرب كانوا يطرقون الأبواب مصحوبين بقضهم وقضيضهم (فتوح أفريقية والاندلس، 20). مسلحين مستعدين للقتال ظاهري الرغبة في السبي والغَنم. فلا غرابة والحالة تلك، أن ينهض الأهالي لرد مايرونه هجوما استعماريا من النوع الذي كان لهم به سابق عهد. وبعد الاصطدامات الاولى تحركت ديناميكية الحرب، وقويت عند الجانبين كليهما إرادة الانتقام والاخذ بالثأر؛ واستمر الوضع على هذه الحال قرنا كاملا. أي من عهد الغزوات الأولى التي كانت تنطلق من مصر (ابن الحكم) الى» معركة الأشراف «فمعركة »بكَدورة «(من حوالي 640/20

إلى 741/123) اللتين حسـمتا النـزاع. وخلصتا المغرب نهائيا من النفوذ السياسـي المشـرقي. ومن هذا المنظـور ينبغي أن يفهم دور كل مـن كسـيلة في مقاومتـه عقبة بن نافـع. ودهيا (التي لقبها العرب بالكاهنة) في تصدِّيها لجيوش حسـان بن النعمان. وميسرة. ثم عبد الحميد الزناتي في مواجهتهما للجيش الأموي العرمرم.

إن مـن يتتبـع مراحل معركة بكَـدورة مثلا. ويحلل أسـاليب الحـرب فيها من جهـة» البربر «يدرك أن هناك تجارب سـابقة في ملاقـاة كل وافـد غير مسـالم. كل من لـه علم بتاريـخ قدماء الأمازيغيين يسـلِّم بأن كسـيلة ودهيـا وميسـرة وغيرهم من» الثوار «إنما واصلوا سلسـلة من الانتفاضات الشعبية الدفاعية فـي نطـاق الخطـة التـي دشـنها »تاكفاريناس «و» أيديمون « و»كاركاسـان «في غابر الازمان. وعمل بهـا. في تلقائية. كل من محمـد بن عبد الكـريم الخطابي وموحا وحمُّـو الزياني (بتفخيم الزاي) وعسُّـو وباسـلام وغيرهم. في الثلـث الأول من هذا القرن الميلادي العشرين الذي نحن فيه. ثم إن لعزم ملوك المغرب. أمثال المولى إسـماعيل والحسـن الأول ومحمد الخامس. على مناهضة الاسـتعمار بالحكمة والقوة معا. جذورا في التاريخ زُرعت بذُورها الأولى في عهد» ماسينيزا «و» يوكَرتن« و» يوبا «الأول. منذ ألفي سنة ونيِّف.

ومـا هو مثبت أيضا أن الأمازيغيـين واجهوا الأطماع الخارجية بالصمود الثقافي كما واجهوها بالسلاح الحربي (la Résistance africaine). فرفعـوا غيـر مـا مرة رايـة العقيـدة للتخلص من

الاستبداد الأجنبي؛ وخير شاهد على ذلك مواقفهم الدينية في ثلاث حقب من تاريخهم الطويل.

لمـا أخذت المسـيحية تنتشـر فـي الجـزء الغربي مـن حوض البحـر المتوسـط. خلال الأقـرن الثلاثـة الاولى بعد الميـلاد. بقي القياصـرة الرومانيون علـى وثنيتهم. كانوا ينصّبون أنفسـهم آلهـة ويحرصـون علـى أن يحتفـل بهـم. بصفتهـم آلهة في جميـع أنحاء الأمبراطوريـة. لكن» دينهم «ذاك لـم يجد طريقا إلى قلوب الأمازيغيين؛ بل نشـطت ضـده المعتقدات المحلية في» أفريقية الشـمالية«. لاسيما في الأوسـاط المستضعفة. وعند ظهور المسـيحية، أمر القياصـرة باضطهـاد كل متنصّر؛ فصار الأمازيغيون يدخلون أفواجا فـي الدين الجديد. فلم ينصرم القرن الميـلادي الثاني إلى أن كان المتنصِّـرون يعتدُّون بعددهم ويزعمون أنهم يشـكِّـلون أغلبية السكان. فصار الحكام الرومانيون، ابتداء مـن سـنة 180م. يُنزلون بهم مـن أصناف التعذيـب والقتل ما لـم ينزلـوه بأي شـعب آخـر تنصـر (C.A. Julien, I, 184...). ولما انقلـب الوضـع الديني فـي روما نفسـها. اذ تخلـى الامبراطور »قونسـطانتينوس الاول Constantinus I «عن الوثنية. سـنة 313م. واتخـذ المسـيحية دينا للدولة. لم يلبـث أن ظهر من بين النصارى الامازيغيين ثلة من الزعماء الروحيين أعلنوا انشقاقهم عن الكنيسـة الرسـمية؛ فسـمُّوا بـ» الدوناتيـين.Donatistes «نسـبة الـى» دوناتـوس «Donatus» أحـد منشـطي حركتهم (Prosopographie, 292...303). وانتشـرت دعوتهم في البوادي خاصـة. واسـتمرت تنفخ فـي النفـوس روح المقاومـة المعنوية

للرومان ثـم للبيزانتيين بعدهم، إلى أن جاء الاسـلام. وذلك رغم ما لقيه» المنشقون «من أنواع التنكيل والتشريد. ورغم مساندة القديس »أوغوستينوس، Saint Augustin «الأمازيغي الاصل للكنيسة الرومانية الرسمية (Les Berbers, I, 63, 64). فهل من المجازفة أن يرى المؤرخ، ذو النظرة الشمولية، في »الدوناتية « سابقة تفسر بوضوح ما حدث في» أفريقية الشمالية «بين الاسلام» الرسمي «الأموي وبين الخوارج المغاربة؟

ألم يكن سبب» الانشقاق «سياسيا قبل أن يكون دينيا في الحالات الثلاث: تنصّر الأمازيغيين إذ كان القياصرة وثنيين، وانشقاقهم عن الكنيسة الرسمية اذ تنصّر القياصرة، واتباعهم مذهب الخوارج ثورة منهم على» سنية «الامويين؟ ثم إن من حقنا أن نتساءل: هل اتخد المغاربة المالكية مذهبا لهم على سبيل المصادفة فقط؟ ولما انفردوا بها أو كادوا؟

2 - الدول الأمازيغية في العهد الاسلامي.

نرى من الضروري، بادىء بدء، أن نناقش المقاييس التي صُنفت بمقتضاها الدول التي تعاقبت على الحكم في أقطار المغرب الكبير، منذ أواخر القرن الثاني الهجري، إلى» عربية» وإلى» بربرية«. نظريا كان ينبغي لتلك المقاييس أن تنبني على مبدءين اثنين لا ثالث لهما:

المبدأ الاول: هو أن كل من صادر الحكم في» أفريقية الشمالية«، كليا أو جزئيا، لمدة ما، في العهد الاسلامي، ولم يكن مسلما، لايمكن أن يعتبر إلا مستعمرا دخيلا. وبهذه الصفة

عومل الفرنسيون والاسبان والايطاليون من قبل الأهالي.

المبدأ الثاني: هو أن كل دولة إسلامية؛ لا يمكن أن تكون إلا دولة إسلامية؛ لا ينبغي لها أن تلتمس مشروعيتها في انتماء سلالي أو عرقي، بل يجب عليها أن تلتمسها في التقوى وصدق العقيدة، رغم ما يترتب على ذلك عادة من المزايدات ومن تبادل القذف بالزندقة أو التجسيم وما إلى ذلك من أنواع الكفر.

هذا المبدأ الثاني لم يعمل به المؤرخون ـ عربا كانوا أو أمازيغيين مستعربين ـ لما صنفوا الدول التي تعاقبت على الحكم إلى» بربرية «وإلى» عربية«. وذلك لأسباب، أهمها أن العرب و«البربر «على السواء لم يتخلصوا من الأنماط الفكرية القبلية التي تستوجب أن يؤرخ للنسب والسلالة والعرق، لا للأرض والوطن.

هذا، بينما تقتضي الموضوعية العلمية أن ينظر إلى جميع الدول الاسلامية التي تتابعت أو تزامنت على أراضي المغرب والجزائر وتونس وليبيا بصفتها» عربية «و» أمازيغية «في آن واحد (وفي بعض الحالات: عربية أمازيغية تركية):

هي عربية بمنزعها الأيديولوجي الاسلامي الذي بموجبه تقدس اللغة العربية وتستلهم الروح المشرقية باستمرار، والذي لا يمكن التخلي عنه علنا في ممارسة الحكم. وما ادعاء بعض الدول الانتماء إلى الدوحة النبوية، وما تأكيد بعضها الآخر، بإلحاح، لصحة انتمائها إلى بيت الشرف، إلا تعزيز وتزكية لذلك المنزع.

وهي أمازيغية بالبيئة الجغرافية وما توفره من سند ديموغرافي بشري لكل مرشح للحكم، وبالتربة السوسيولوجية وما أرسب

فيها التاريخ طوال آلاف السنين من عادات وعقليات، واستعداد لرد الفعل المناسب في كل حالة سبق أن تكررت عبر الزمان. أما اللغة فلا يمكن أن تكون وحدها هي المقياس، لأن الأمازيغي المستعرب، ما لم يُنقل عن» تربته «الاجتماعية الأولى، يحتفظ، من حيث لا يشعر، بما كان متأصلا في شخصيته من مميزات؛ ولأن العربي الأصل المنغمس منذ أجيال في لجة المجتمع الأمازيغي» يتمزغ «من حيث لا يشعر، لا محالة، في مقومات كيانه المادية والمعنوية. أضف إلى هذا كله أن البَوْن بين الطبائع العربية والطبائع الأمازيغية ليس شاسعا.

ومهما يكن في هذه الاعتبارات من المطابقة أو عدم المطابقة للواقع، فإن المتأمل لتاريخ «أفريقية الشمالية» ـ أي لتاريخ إمازيغن ـ لا يمكنه إلا أن يسلّم بأن في ماجرياته، ودوراته الكبرى المتكررة، وعوامله السوسيولوجية، ما يلفت النظر إلى نوع من التواصل بين ماض سحيق في القدم وماض جد قريب وكأنه حاضر. تتجلى استمرارية التاريخ» المغاربي «في علاقات الحكام بالمحكومين، من حيث إن الرعية تنزع دائما إلى التحرر المطلق، بينما ينزع الحكم المركزي إلى الاستبداد، فتنتج من ذلك أوضاع سياسية دائمة التوتر يتولد فيها العنف من العنف داخل حلقة مفرغة.

وتتجلى استمرارية التاريخ» المغاربي «في الطرائق التي يواجه بها الأهالي التدخلات الأجنبية، على المستويين الرسمي والشعبي. وتتجلى تلك الاستمرارية في توظيف القيم الروحية من أجل التحرر، كلما باءت المحاولات الأخرى بالفشل؛ كما تتجلى

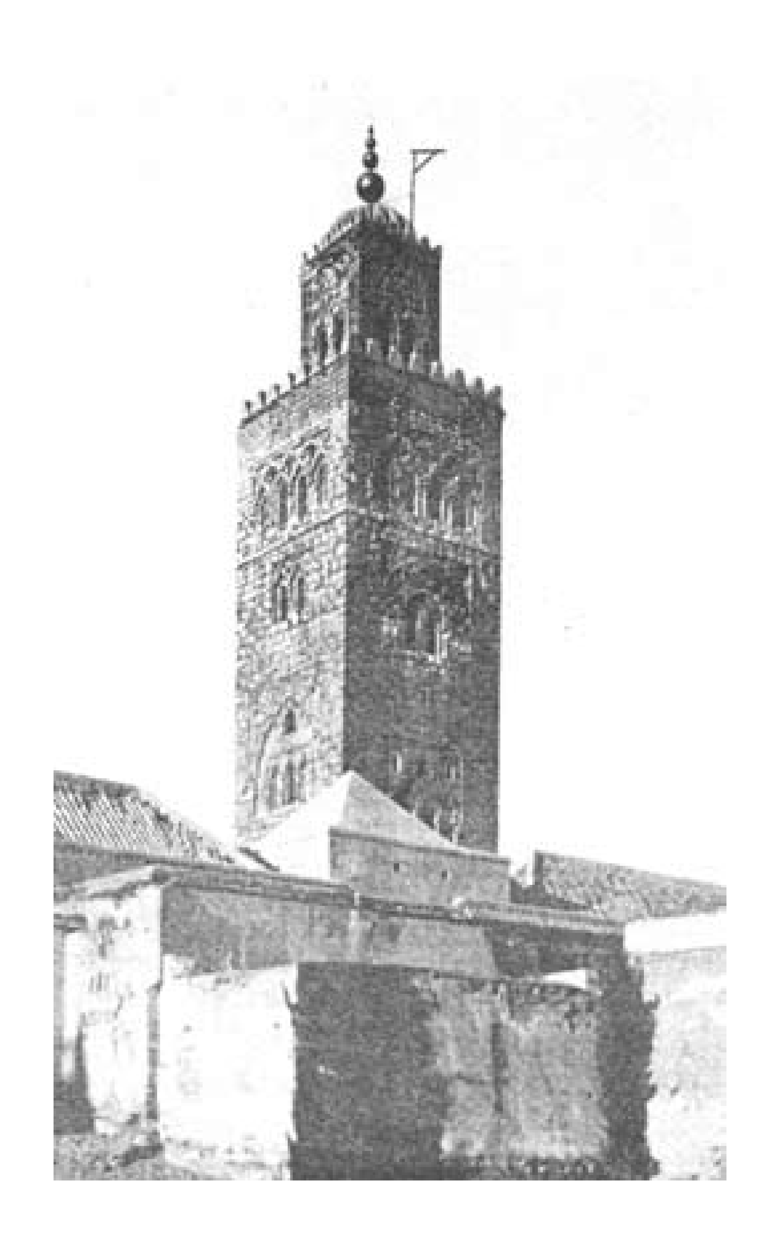
في الاقبال الاضطراري على «المثاقفة، l'acculturation». خاصة اللغوية، لما فيها من مزايا حضارية، ورغم ما فيها من عوائق ومثبطات لنمو الثقافة الذاتية. وسنبين في الأخير أسباب ركود الثقافة الذاتية بما هو داخلي من تلك الأسباب وما هو خارجي.

ولنا بعد هذا التحفظ المبدئي في تقبل التصانيف الجاري بها العمل أن نستعرض أسماء الدول الأمازيغية التي حكمت لمدة ما إقليما أو قطرا أو مجموعة أقطار أو أقاليم، إما في «أفريقية الشمالية» وإما في الأندلس؛ نوردها في جدول بياني، كما عرَّف بها المؤرخون التقليديون، مع الاشارة إلى اسم كل دولة منها، وإلى مجال نفوذها السياسي. وقد كُتبت في هذا البيان أسماء الدول الكبرى والمتوسطة بحروف بارزة، وأسماء الدول الصغرى والأقل أهمية بحروف عادية. أما تداخل العهود بين بعض الدول المتزامنة أو المتعاقبة، أو اشتراك أجزاء من مجالات نفوذها فراجع إلى تنازعها الحكم بينها أو تداولها إياه.

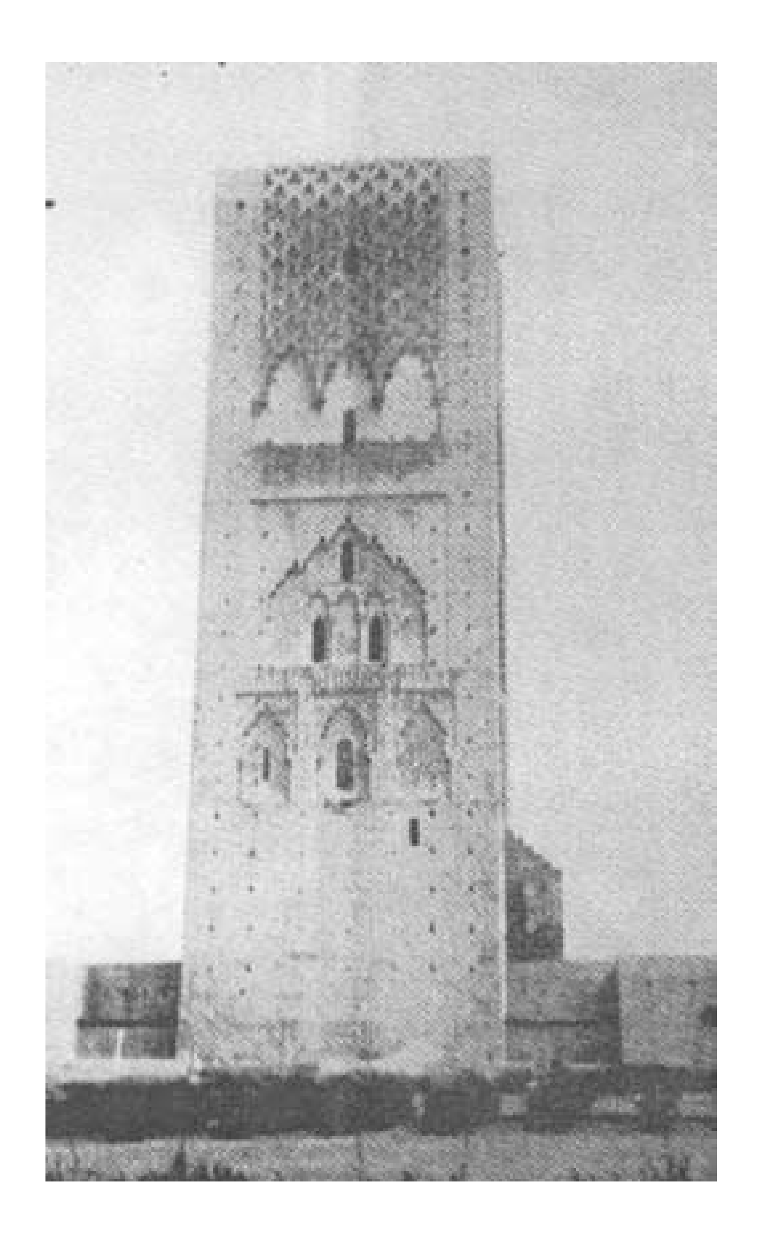
أسماء الدول	عهد كل دولة	عاصمتها، قواعدها، مجال نفوذها
مملكة كسيلة	64/684 - 69/689	القيروان، إفريقيا
الخوارج المغاربة بعد معركتي شلف وسبو (بكدورة)	123/741 اندثروا شيئا فشيئا في جل المناطق، بصفتهم خوارج.	المغرب الاقصى : أسس مكناسة مدينة سجلماسة 728/140 -729. المغرب الاوسط : صنهاجة في مدينة باجة. المغرب الادنى : هوارة في طرابلس، وبربر جبل نفوسة في قابس.
برغواطة (من المصامدة)	127/745 451/1058	بلاد تامسنا، اي السهول الاطلنتية الممتدة من سلا الى آسفى.
بنو عصام	القرن الثالث والقرن الرابع الهجريان.	مدينة سبتة
مكناسة (زناتيون)	القرن الرابع الهجري القرن العاشر الميلادي	أسسوا مدينتي تازا ومكناس، وحكموا فاس وتلمسان
بنو مدرار (زناتيون)	القرن الرابع الهجري القرن العاشر الميلادي	سجلماسة، والواحات المجاورة.
بنو يفرن (زناتيون)	القرن الرابع الهجري القرن العاشر الميلادي	عاصمتهم : إفكَان، حكموا فاس وتلمسان وسلا وتادلا
مغراوة (زناتيون)	القرن الرابع الهجري القرن العاشر الميلادي	أسسوا وجدة، وحكموا فاس وتلمسان وسجلماسة.
بنو زيري (صنهاجة)	972 / 362 1152 / 547	تونس وشرقي الجزائر : القيروان، المهدية
بنو حماد (صنهاجة)	1007 / 398 1152 / 547	المغرب الاوسط : قلعة بني حماد، بجاية.
بنو زيزي (صنهاجة)	1018 / 408 1090 / 483	غرناطة، بالأندلس
بنو الأفطس (زناتيون)	1022 / 413 1095 / 487	بطليوس، بالأندلس.
بنو ذي النون (هواريون)	1028 / 419 1085 / 478	طليطلة، حكموا ما بين وادي الحجارة وطلبيرة شمالا، ومورسيا جنوبا. اسمهم الحقيقى : بنو أزينون
المرابطون (صنهاجيون)	1043 / 434 1147 / 541	عاصمتها، قواعدها، مجال نفوذها عهد كل دولة أسماء الدول أسسوا مراكش. حكموا المغرب الاقصى وغربي المغرب الاوسط والاندلس وموريتانيا الحالية.
بنو غانية (صنهاجيون)	1146 / 541 1237 / 633	انطلقوا من غرناطة بالاندلس، وحكموا ميورقة وطرابلس الغرب وبلاد الجريد بإفريقيا.
الموحدون (مصامدة وزناتيون)	1147 / 541 1269 / 668	عاصمتهم : مراكش. حكموا المغرب الكبير كله، الى طرابلس، والاندلس. أسسوا مدينة الرباط.
الحفصيون (فرع من الموحدين)	1234 / 631 1569 / 976	عاصمتهم : تونس. حكموا إفريقيا كلها، ووسعوا مجال نفوذهم من جهة الغرب الى تخوم المغرب الاقصى.
بنو عبد الواد أو بنو زيان (زناتيون)	1235 / 633 1509 / 915	عاصمتهم : تلمسان. نازعهم الملك المرينيون من جهة الغرب، ونازعهم إياه الحفصيون من جهة الشرق.
بنو مرين (زناتيون)	1269 / 668 1465 / 869	عاصمتهم : فاس. حكموا المغرب الاقصى، وحكموا لمدة ما الاندلس والمغرب الاوسط وإفريقيا.
بنو وطاس (زناتيون من قبيلة بنى مرين)	1465 / 869 1549 / 956	عاصمتهم : فاس. حكموا المغرب الاقصى. تقلص مجال نفوذهم بالتدريج.

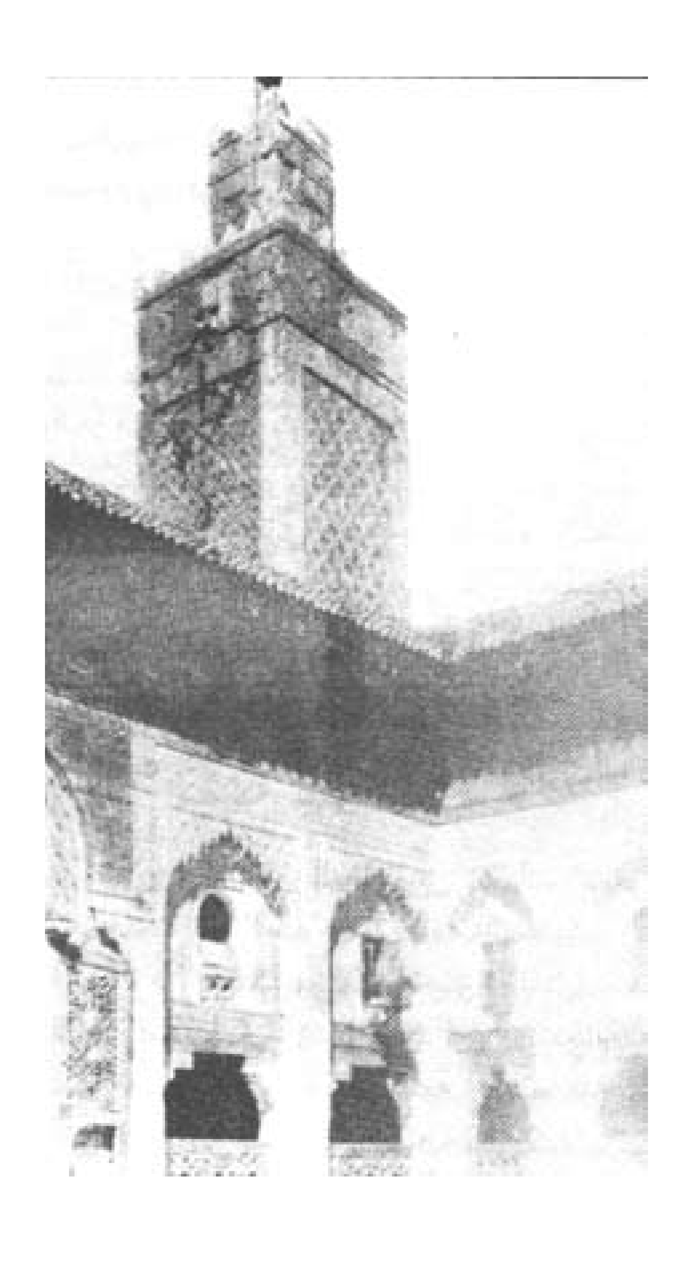
الثقافة الأمازيغية وثقافات الأمازيغيين

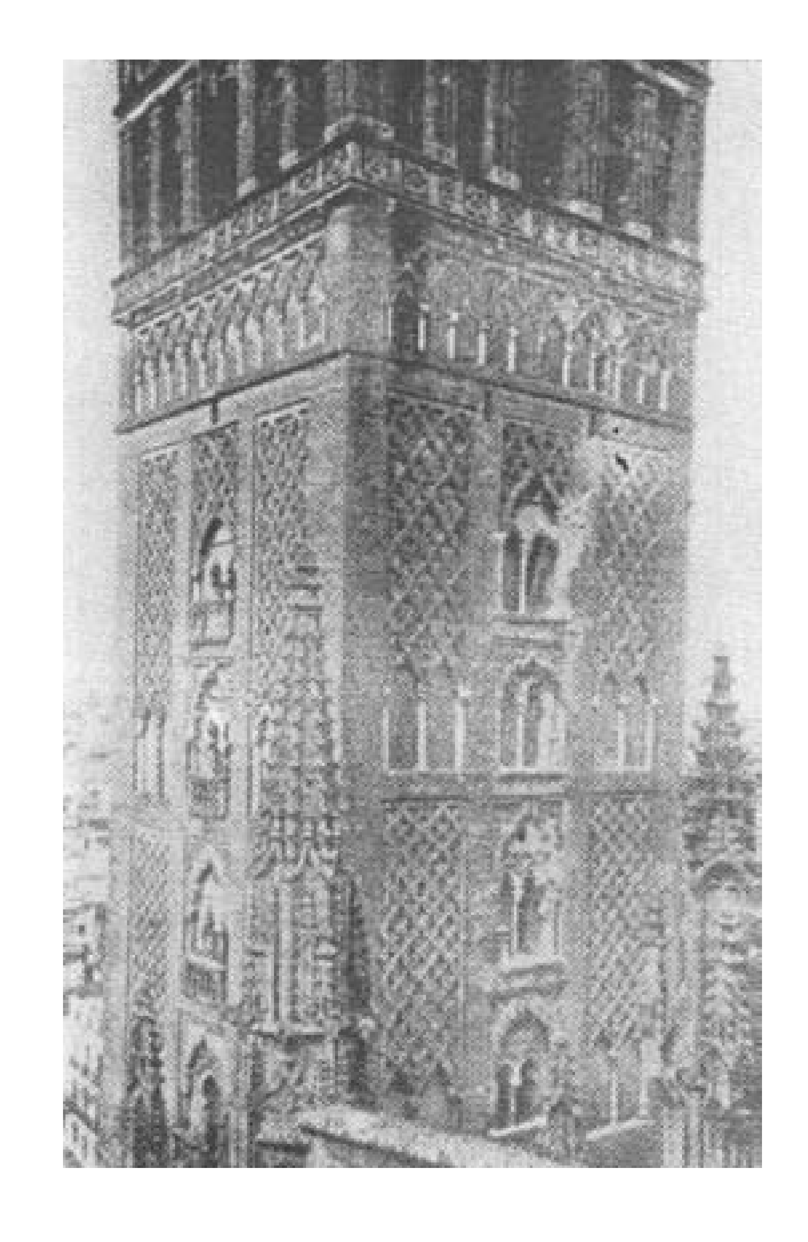
كثيرا ما كتب وقيل إن» البربر «لم ينشئوا قط ثقافة ذاتية يختصون بها. يعتبر هذا الحكم صائبا من له تصور تقليدي لمفهوم الثقافة، بحيث يجعله ينحصر في حيِّز المآثر الأدبية المكتوبة، ويعتبره غير صائب من له تصور شمولي أنثروبولوجي عصري لمفهوم الثقافة، بحيث يرى أن التقاليد الاجتماعية والاختيارات والنزعات السياسية، والفنون بمختلف أنواعها، كالمعمار والرقص والغناء، والأدب الشفوي المروي جيلا عن جيل، من شعر وقصص وأمثال سائرة، يرى أن ذلك كله ثقافة، بالاضافة إلى اللغة نفسها، بطبيعة الحال، وما تنفرد به من ميزات معجمية وصرفية ونحوية واشتقاقية. والواقع أن للأمازيغيين ثقافة خاصة بهم توارثوها عبر العصور منذ آلاف السنين، يصعب على الباحث أن يتتبع مراحل تطورها فيما يخص الجوانب المعتمدة للكتابة، لكنه يستطيع أن يشخص بسهولة كل الجوانب الأخرى، ولابد في هذا الصدد من التنبيه إلى أن الثقافة الأمازيغية لم تنحصر، منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف عام، في ما هو خاص بهم متوارث عندهم،











بل كانت دائما» ثقافة مفتوحة «غير منغلقة على نفسها، ولكن بالضرورة لا بمحض الاختيار. ولذا ساهم» البربر «مساهمة مهمة في تشييد أركان الحضارات والثقافات الكبرى التي تعاقبت على شواطئ البحر المتوسط ابتداء من أواسط الألف الأول قبل الميلاد. أما سبب تقوقع ثقافتهم الذاتية فمزدوج، أو هو في الواقع سببان. أولهما هو نمط عيشهم المطبوع بالبداوة. وسنشرح فيما بعد عوامل بداوتهم. وثانيهما أن لغتهم لم ينزل بها كتاب، فلم يخدمها دافع ديني قط، كما خدمت الدوافع الدينية العبرية والعربية، وبدرجة أدنى اليونانية واللاتينية. وقد تفطن لهذه الظاهرة حاميم الغماري المتنبي إذ حاول، في أوائل القرن الرابع الهجري، أن يعارض القرآن في لغة أجداده، كما فعل من قبله صالح بن طريف البرغواطي المصمودي، في أوائل القرن الثاني الهجري.

لثقافة الأمازيغيين إذن شقان، أحدهما خاص بهم، هو رصيدهم الأول المتوارث؛ بعض عناصره شبه مجمدة لاتزال محافظة على أشكالها التي نشأت عليها أول نشأة في غابر الأزمان، كالمعمار والزخرف في الزربية والخزف والوشم وواجهات المباني؛ وبعضها يحتمل في وجوده أنه تطور عبر العصور، لكنه احتفظ مع ذلك بطابعه الأمازيغي المتميز، كاللغة والأدب الشفوي والرقص والغناء والتقاليد الاجتماعية والسياسية. وشق ثقافتهم الثاني هو ما أخذوا عن الثقافات الأخرى: عن الفينيقية واليونانية واللاتينية والعربية الاسلامية (والفرنسية والاسبانية)، وما أسهموا به في بلورة تلك الثقافات نفسها .

1 - الثقافة الأمازيغية الأصلية المتوارثة :

أ - اللغة "البربرية":

من المعلوم أن عقليات الشعوب لا تتطور إلا تطورا بطيئا جدا، لاتغير منها الانقلابات والصدمات إلا ما هو على السطح، ومن المعلوم أن اللغات هي التي تصوغ العقليات ما دامت تعمل في حقلها الأصلي لم تنقل عنه (Pour une sociologie du langage). وكل من يعترف بصحة هذه الأطروحة التاريخية الاجتماعية يدرك أن اللغة الأمازيغية من أهم العوامل الحضارية والثقافية التي كيفت الروح المغربية والبيئة الطبيعية التي نشأت فيها، وقَولَبت الفكر المغربي في كثير من جوانبه، طوال آلاف السنين، وبالتالي شكلت البنية التحتية للشخصية المغربية الاسلامية، أو لما سُمي بالانسية المغربية على غرار الانسية الأوربية. وما يمكن لدارس اللغة الأمازيغية في العمق أن يستنتجه، أنها تستمد عبقريتها من تفاعلها مع طينة أفريقية الشمالية وتجاوبها معها. حتى إن جوانب معينة من البحث العلمي المتخصص تستوجب على الباحث إلماما بالأمازيغية، تستوجبه على المؤرخ والسوسيولوجي والجغرافي والنباتي والجيولوجي، واللغوي المقارن .

واللغة» البربرية «لغة قائمة بذاتها، ليست» لهجة «متفرعة عن لغة أخرى، ولها هي لهجاتها المتفرعة عنها (Boukous, Bulletin, 10..16) المنتشرة في المغرب والجزائر وليبيا وجنوبي تونس وموريتانيا ومالي والنيجر(Langue

(et littérature..108,110, Encyclop. Berbère, IV, 563).

وهـي لهجـات تلتقي فـي أصـل واحد بصـورة واضحـة، لا في معطياتها النظرية فحسب، ولكن حتى في معطياتها المتصلة بالممارسـة والاسـتعمال. لقد كتب الباحث «المتمزغ» « أنضري باصـي.André Basset «في الموضوع ما يلـي:» ينتقل (الباحث) من لهجة إلى لهجة دون أن يحس بأنه ينتقل». كتب هذا سـنة 1929 (La langue berbère, p. IX). ثم أضاف بعد عشرين عاما من مواصلة البحـث، قائلا:» إن بنية اللغة الأمازيغية وعناصرها وأشـكالها الصرفية تتسم بالوحدة إلى درجة أنه إن كنت تعرف حق المعرفة لهجة واحدة منها اسـتطعت في ظرف أسـابيع أن تتعلـم أية لهجة أخرى، تدلـك على ذلك التجربـة، إذ اللغة هي اللغة نفسـها. ولقد عجبت لذلـك...» (Revue le Monde non chrétien, n° 11 juillet-sept, 1949, p 10 et 11...).

وتتجلـى وحـدة اللغة الأمازيغيـة في الزمن أيضـا، لأن بطء التطـور الحضـاري سـاعد علـى اسـتقرار المعطيـات اللغويـة (Basset, 1949, p 11) بحيـث يمكن القول إن الأمازيغية لو يُعنى بهـا العناية الكافية، ستسـاعد مؤرخي العصـر القديم خاصة فـي تعميق أبحاثهم. أمـا انتماؤها من وجهة نظر» اللسـانيين «فقد بينه» مارسـيل كوهـن، Marcel Cohen «فـي أطروحته وفيمـا تبعها من مؤلفاته انطلاقا من سـنة 1924، إذ برهن على أنهـا فرع من المجموعة الحامية السـامية. وقد صـارت منذ أواخر القرن التاسع عشـر محط اهتمام لدى اللغويين المعنيين بتطور اللغات وبنواميس ذلك التطور، نظرا لحيويتها رغم اعتمادها على

الشـفوية وحدهـا (Science et vie, 52 à 63). (Les Origines berbères, p 113 ...).

والواقـع أن اللغـة الأمازيغيـة لاتـزال حيـة، محافظة على كيانهـا الذاتـي الـذي لا يتجلى بوضوح تـام وبـكل عناصره إلاّ لمن كلف نفسـه قليـلا من الاهتمـام باللهجات ومـا بينها من التداخـل والتكامـل، متجها وجهـة التماس العوامـل الموحدة، لا وجهـة التمـاس العوامـل المفرقة بينها كمـا كان يفعل عدد مـن» الباحثـين «الفرنسـيين. واللغـة الأمازيغية فـي وضعها الحالـي، أي بصفتهـا لغة حية يتخاطب بها النـاس، في تلقائية وعفوية، قابلة للانتعاش والنمو والازدهار، لاسـيما أن لها نظاما اشـتقاقيا جد مرن يتفاعل فيه الاشـتقاق الأصغر والاشـتقاق الأكبـر مـع النحت والتركيـب المزجي تفاعلا يضاعـف إمكانات الخلق المعجمي اليسير المنال. وبدراسة هذا النظام في تفاصيله سـيتمكن الخبراء مـن فك ألغاز النقوش القديمة التي اسـتغلق أمرها عليهم حتى الآن، ومن تسـليط بعض الأضواء على خفايا تاريخ أفريقيـة الشـمالية .

هذه اللغة لها شعراؤها الذين يتغنون بها (إماريرن، واحدهم أمارير، وإمذيازن، واحدهـم أمذياز)، ولها قصاصها الذين يقصون علـى الأطفـال أقاصيصهـم، ما لـم تدخـل التلفـزة البيوتات لتسـتحوذ علـى أذهان الأطفـال بما تحمله إليهم مـن صور ومن معلومـات في لغات أخرى يعسـر عليهم فهمهـا ولها أمثالها التـي يتمثل بها، ولها فصاحتها الخاصة بها. ولها ضعفها الذي لم يفارقها حتى اليوم رغم المحاولات، ألا وهو اعتمادها الشـفويّة

دون الكتابة. فلم يُقدَّر التدوين من جراء ذلك إلا لعدد ضئيل من مآثرها الأدبية. أما الباقي فإنه ضاع في طيات النسيان، بعد ان ردده إثر نشأته جيل أو جيلان أو ثلاثة أجيال في أحسن الحالات. وما دُوِّن نذكر على سبيل المثال شعر سيدي حمو السوسي المتعدد الأغراض، الذي يرجع عهده إلى القرن الثاني عشر الهجري (عمر أمرير) والشعر الديني التعليمي لمحمد أوزال من القرن الثالث عشره وشعر السي موحند القبائلي من القرن التاسع عشر الميلادي (Les Isfra de si Mohand) وهو شعر ذو نفس فلسفي. وشعر تاوكَرات (Taougrat) الملحمي من أوائل القرن العشرين، وعدد من القصائد المتفرقة لشعراء مختلفين من القرن العشرين أيضا. ومن كبار الشعراء الذين لهم صيت في الجهة التي ينتمون إليها نذكر سليمان عازم، وسليمان الشابي وفاطمة عمروش ايت منصور، وموحند ومحاند والحاج رابح القبائليين، وعبد الرحمان ومسعود المتوكَي. وقد أصبح الشباب الأمازيغيون يهتمون بتدوين الأدب الأمازيغي الجديد وبالتنقيب عن القديم منه، بمحض وسائلهم، ويؤلفون تأليفا إنشائيا يعد بالنمو. نذكر من مؤلفاتهم» وُسان صميدنين، الأيام الباردة «لمومن علي الصافي، و«ئسكراف، القيود «لمحمد مستاوي. من هؤلاء الشباب من يكتب بالحروف العربية، ومنهم من يكتب بالحروف اللاتينية، خاصة في الجزائر، لأن اللغة الأمازيغية تخلت عن أبجديتها الذاتية منذ دخول» البربر «في الاسلام، حسب ما تدل عليه القرائن، ولم يحتفظ بها إلا قبائل التوارك غير أن حروفا منها لا تزال تُدرج في زخارف الزربية المغربية .

ب ـ الكتابة الأمازيغية القديمة:

حسب ما أثبته البحث إلى حد الآن، لم ينشأ على أرض القارة الافريقية كلها إلا أبجديتان اثنتان ـ بصرف النظر عن الهيروغليفات ـ هما الأبجدية الأمازيغية والأبجدية الأثيوبية (Berbères, Camps, 275). وقد أثبت البحث أن ظهور الحروف الأمازيغية الأولى يرجع عهده إلى فجر التاريخ، وأن مجال انتشارها يمتد من شمالي السودان إلى الجزر الخالدات غربا وصقلية والأندلس شمالا (Histoire du développement...II, 26; Berbères, Camps, 277). تسمى هذه الحروف» تيفيناغ«، وقد أُوِّلت هذه التسمية تأويلات مختلفة، أسرعها إلى الذهن هو أن الكلمة مشتقة من» فينيق، فينيقيا «وما إلى ذلك. قد يطابق ذلك اصل هذه التسمية، وربما لا علاقة له به، ولكن المحقق هو أن الكتابة الأمازيغية غير منقولة عنها، بل رجح الاعتقاد بأنها والفينيقية تنتميان إلى نماذج جد قديمة لها علاقة بالحروف التي اكتشفت في جنوبي الجزيرة العربية. وقد أشرنا إلى هذه العلاقة فيما سلف. لقد كانت الأبجدية الأمازيغية في المراحل الأولى من وجودها تتكون من» حروف صامتة.«Consonnes . هي المعنية بـ «تيفيناغ«. ويعتقد أن عدد تلك الحروف الصامتة كان 16 حرفا (Les Origines berbères, p 61). وأنه صار 23 حرفا في عهد المملكة المازيلية النوميدية (Berbères, Camps, 277). وقد أضيفت إلى الحروف الصامتة في زمن متأخر» حروف صائتة.«Voyelles سميت» تيدَّباكين«. تقابل الفتحة والكسرة والضمة. وتسمى الأبجدية في مجموعها» أكَامك «كان

الأمازيغيون القدماء يكتبون بهذه الحروف على جدران الكهوف وعلى الصخور، من الأعلى إلى الأسفل، في أول عهدهم بالكتابة. ثم كتبوا في جميع الاتجاهات، ودام ذلك الوضع إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، حيث أخذ التوارك يستقرون على الكُتُب من اليمين إلى اليسار تقليدا لما هو معمول به في العربية .

وقد ترك لنا القدماء على الصخور والصفائح الحجرية، ما يربو على ألف نقش (Marcy, Chabot, Reygasse) وتركوا عددا من النقوش التذكارية في تونس والجزائر خاصة، فيها ما هو مصحوب بترجمته اللاتينية أو الفينيقية. وقد قام الباحث» جورج مارسي، «Georges Marcy بمحاولة جادة من أجل شرحها. لكن معظم النقوش الأمازيغية القديمة لا تزال تنتظر اختصاصيين يشترط فيهم أن يتقنوا الأمازيغية أولا، ثم إحدى اللغات الميتة الآتية: الفينيقية أو اليونانية أو اللاتينية. يوجد في المغرب نماذج من النقوش على الصخر في «عزيب نيكّيس « و«ياكَور « بالأطلس الكبير، ونقش» صفيحة أزرو «ونقش» صفيحة تيفلت(Chabot) «. وهنا يجب التساؤل: هل سمّيت مدينة» تيفلت «بهذا الاسم على طريق المصادفة ليس غير؟ لأن »تيفلت «في الأمازيغية هي» الصفيحة «الحجرية بالذات، حسب ما احتفظت به اللهجة التركَية من معاني الألفاظ الأصلية. نقش بالحروف الأمازيغية متوغل في القدم، يوجد بالمكان المسمى "عزيب ن يكيس" في الأطلس الكبير الفارس الأمازيغيّ الرافع لقرص الشمس المشعّة؛ وعلى يمينه نقش بحروف "تيفيناغ" ويوجد في الصحراء المغربية في نواحي سمارا حسب شاهد عيان ـ هو الدكتور حمداتي ماء

العينين ـ نصوص كاملة بحروف» تيفيناغ «نقشت في عهد ما على صفحات صخور كبيرة. وهناك في المغرب أيضا صفائح أخرى معروفة: «صفيحة أجرا» المعروضة في متحف تيطاوين، وصفيحة» عين الجمعة «وصفيحة» سيدي سليمان «(متحف الرباط)... وعلى سبيل المثال نورد هنا أحد السطور الثلاثة من النص المنقوش على »صفيحة تيفلت «(متحف وليلي) :

هذه النقوش الأمازيغية القديمة كانت أكثر انتشارا في البوادي والأرياف منها في المدن.(Camps) أينبغي أن يعتبر ذلك سببا لتراجع الكتابة» البربرية «أمام البونية فاللاتينية فالعربية؟ أم ينبغي أن يعتبر نتيجة لتوازي التمدن مع استخدام الحرف البوني، ثم اللاتيني، ثم العربي؟ وما هو ملحوظ منذ عقدين على وجه التقريب هو أن جماعات من المثقفين يحاولون أن يحيوا الحرف الأمازيغي القديم، وقد توصلوا إلى صنع آلات للرقانة به، لم يسمح ببيعها في الأسواق .

ج ـ الفنون الأمازيغية التعبيرية:

مع أن اللغة الأمازيغية جردها الزمان من كتابتها، ومع أن الناطقين بها لم يعنوا كثيرا بتدوين إنتاجاتها الأدبية، ومع أنها لم تكن قط لغة تلقين أو تعليم، ولم تكن موضوع بحث وتحليل إلا ابتداء من القرن الماضي، فقد ظلت حية في أفريقية الشمالية كلها والصحراء الكبرى إلى يومنا هذا، إما في مناطق شاسعة يتخاطب بها في كل مكان، وإما في »جزر لغوية شاهدة«. أي في أماكن محدودة المساحة تكون عبارة عن مواطن لقبائل صغيرة،

أو عن مجموعة قرى متجاورة، أو قرية منفردة، أو واحة من الواحات، أو حتى عن بيت واحد أو متجر يوجد وسط بيوتات أو متاجر في قلب مدينة كبيرة مستعربة. تتجلى حيوية اللغة الأمازيغية في التلقائية التي يتكلمها الناس بها، وفي الأغاني والقصائد التي يروجها شعراؤها. وقد تعصب أحد أولئك الشعراء لـ» لغة أمه «إلى درجة أنه زعم بأن الغزل يستحيل بسواها.

إذ قال :

في لُغَة أُمي

بُحْتُ إليكِ، حَبيبتي، بِسِرّي !

كيف يَفعَل، يا تُرَى مَنْ يَجهلُ لُغة الأمازيغ ؟

أَ بِكَلمَة حُب، أَبَدا، لا يَنْطِقُ ؟

وهو قول يذكرنا بقول أحد شيوخ الأدب العربي القدماء «إن الهجو باللغة العربية لأحبّ إلي من المدح بالفارسية«!.

أغراض الشعر الأمازيغي متنوعة، وكذلك أصنافه وموازينه (انظر:Renisio, Laoust, Maâmmri, De Foucauld ، وعمر أمرير، ومحمد شفيق) وقد ظهرت في الثلاثين سنة الأخيرة حركة تجديد لقوالب العشر في مناطق مختلفة، لاسيما في الشعر المتغنى به. أخذ مغنون شباب يقلدون أنماط الموسيقى العصرية، أمثال العمّوري في المغرب، وإيدير، وجمال علاّم، في الجزائر. وقد انتشر صيت المجموعات الغنائية الآتية:» أوسمان = البروق، جمع برق «و «إزنزارن = الأشعة « و«أدراو = المأدبة «في

المغرب، و«الجرجورة «في الجزائر .

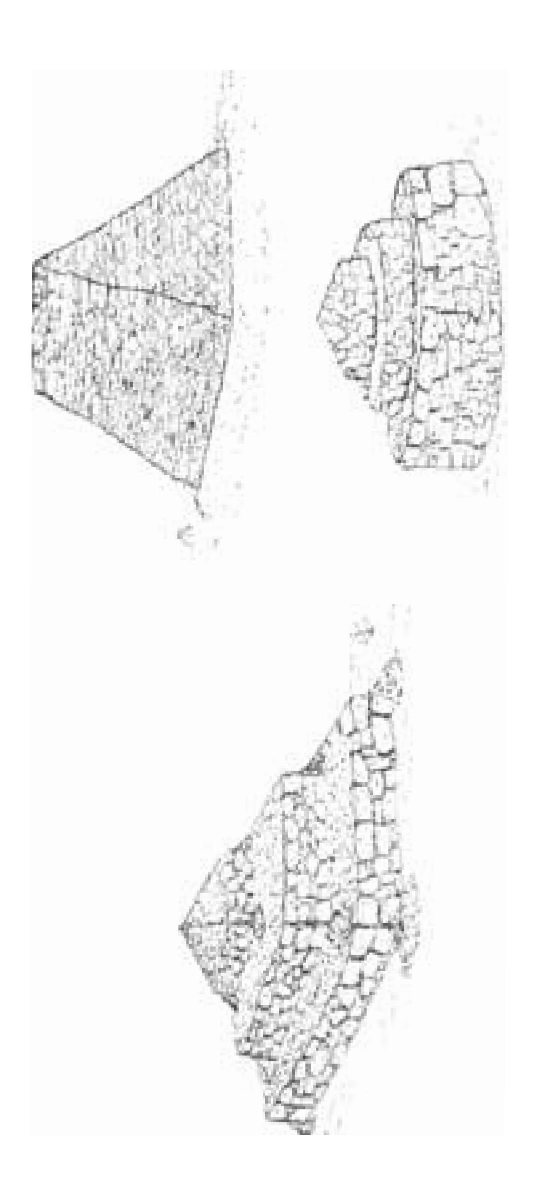
ومن تقاليد الأمازيغيين العريقة الرقص الجماعي المصحوب بالغناء. وهو الذي قال فيه أحد الخبراء الغربيين» إنه من إيحاء تموجات السنابل... أو الكثبان في الصحراء، او أعراف الجبال في الآفاق» (Tableau de la musique.... نقلا عن Paul Hector) والرقص الأمازيغي أنواع كثيرة، أهمها» أحيدوس «و«أحواش«. أما رقصات» الشيخات «فليست من التراث الأمازيغي في شيء، وإنما هي» بدعة «أقحمت فيه على يد» قيّاد «الاستعمار، استوردوها من المحلات المشبوهة التي تكاثرت في المدن المغربية طيلة عهد» الحماية«. وليس من المبالغة أن يقال إن الرقص الأمازيغي التقليدي هو الرقص الكلاسيكي المغربي. وليس للمغرب رقص غيره له ميزة تستحق الاعتبار يُرشّح بها لأن يمثل الشخصية المغربية. لكن هذا الرقص صنّفه الفرنسيون »فولكلورا.folklore «. فتبعهم في ذلك المسؤولون الوطنيون عن الفن، فلم يُقيَّض له من ينهض به. ولذا صار يفقد رونقه الأصلي ويفقد تلقائيته النابعة من روح الابتكار الجماعية العاملة بدوافعها الذاتية.

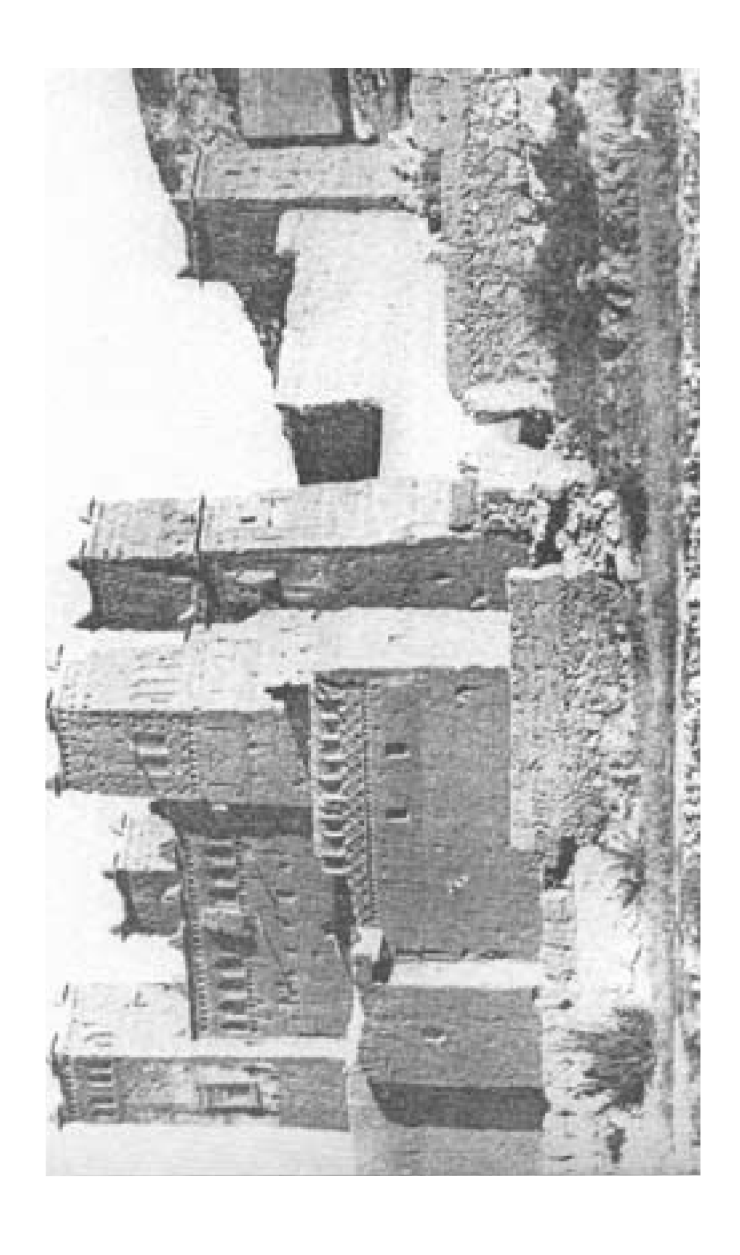
د ــ المعمار والزخرف الأمازيغيان :

الآثار المعمارية الأمازيغية ضاربة في القدم، يرجع عهد عناصرها الأولى إلى ما قبل التاريخ. تلك العناصر الأولى عبارة عن أضرحة بسيطة، بني كل واحد منها على شكل ركام من الحجارة يسمى الآن عند التوارك» أدبني ج إدبنيين«. وقد تطورت

فيما بعد تصاميم تلك الأضرحة إلى أن صارت أشكالها إما هرمية مربعة القواعد، وإما مستديرة القاعدة مدرجة من الأسفل إلى الأعلى في طبقات. هذه الأضرحة الأخيرة تسمى »بازينا« وهي مبنية من الحجارة المتراصة، وأصل اسمها حسب ما نرجح راجع إلى كون بُنيانها غير معقود بملاط، لأن مادة» بزن «في اللغة الأمازيغية تفيد انعدام الإدام مع الخبز أو انعدام الملاط مع حجارة المبنى؛ فالخبز الحاف يسمى» أبازين«. وكذلك الحائط المبني من الحجارة المنضّدة دون تمليط (Berbères, Camps, 84,85).

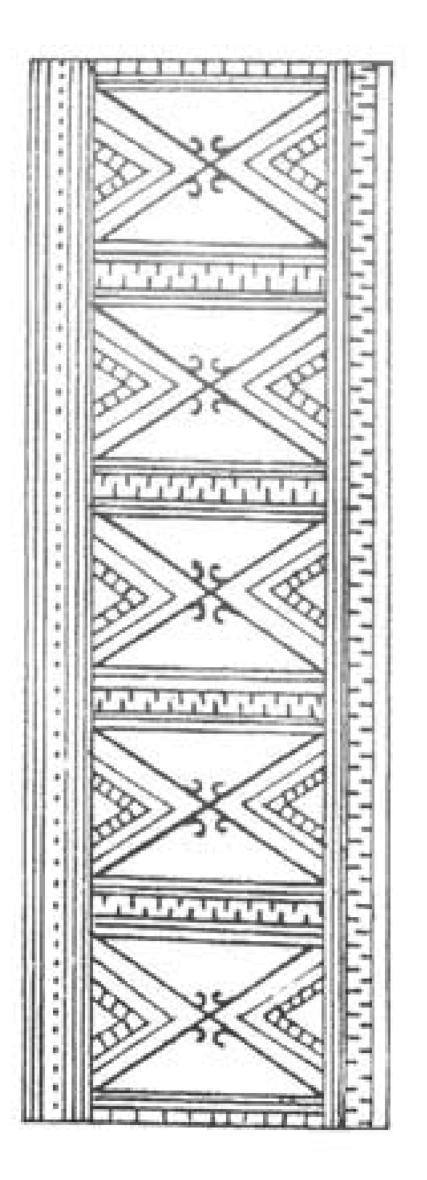
وفي مراحل تاريخية أخرى صارت الأضرحة عبارة عن مبان شاهقة في شكل منارات مكونة من أربع طبقات أو خمس، علياها أصغر حجما من سفلاها، أو عبارة عن مبان مخروطية الشكل أسطوانية القاعدة يبلغ ارتفاعها ثلاثين مترا فأزيد، ويبلغ قطر دائرتها حوالي ستين مترا؛ وهي مبنية من الحجارة المنحوتة أيضا. هذه الأضرحة، بنوعيها منسوبة إلى الملوك الأمازيغيين القدماء، يوجد من نوعها الأول اثنان في تونس الحالية، أحدهما بمدينة دوكّة (ثوكّا القديمة)، والآخر بشمتو (سيميثو القديمة)، وواحد بالجزائر في المكان المسمى» الخروب«. ويوجد من نوعها الثاني اثنان بالجزائر في كل من» قبر النصرانية « و«مّيدراسن«، وبقايا مجموعات منها بالمغرب في سهل سايس، قرب عين تاوجضات، وفي سهل الغرب قرب مدينة سيدي سليمان (تل سيدي سليمان.L'Afrique du Nord, 70) ولهذا النوع الأخير من الأضرحة الأمازيغية القديمة خصوصيات معمارية تجعله منفردا في تاريخ المباني الأثرية . ومن الأنماط المعمارية الأمازيغية













التـي نفذت إلـى عصرنا من أعماق التاريخ تلـك التي تبنى على غرارهـا» القصور «الجماعيـة («إغرمان «التـي مفردها» إغرم«) و«القصبـات « («تيغرمين «التي مفردها» تيغرمت«) المنتشـرة في الأطلس الكبيـر، ومخازن الحبوب العموميـة («إكودار «التي مفردهـا» أكَادير، «Greniers Citadelles). وقد نفذت إلينا معها أنواع من الزخرف، كلها عبارة عن تشـكيلات هندسـية أساسها الخط المسـتقيم، تزين بهـا واجهات المباني السـالفة الذكر، في الأطلـس الكبيـر والواحـات، وتزين بهـا الزرابي والحلـي الفضية والآنيـة الطينية والخزفية. هذا، ثم إن المعمار المغربي الاسـلامي مطبـوع هو أيضا بـروح الفن الأمازيغـي الميالة إلى البسـاطة وتوخي المتانة، يتجلى ذلك أحسـن ما يتجلى في أشكال المنارات المربعـة القاعدة، عامـة، وفي منـارات الموحدين الثـلاث خاصة: منارة الكتبية بمراكش، ومنارة حسـان بالربـاط، ومنارة» الخيرالدا «بإشبيلية . منارة " الخيرالدة " بإشبيلية، وهي من منشأت الدولة الموحدية.

وإذا أضفنـا إلى المعمـار والزخرف قائمة بالرسـوم التمثيلية الكثيـرة التـي رسـمت بالنقـوش أو الألـوان علـى الصخور في الكهـوف والجبال والصحاري منذ العهـد الحجري الجديد، تكتمل لدينـا صـورة الفن الأمازيغـي القديم، وما اتسـم بـه وجوده من اسـتمرارية نادرة. نخص بالذكر من الرسـوم المنقوشـة: العربة ذات الأفـراس الأربعـة (وادي أزكَـزا، بـتـاركَا، وتاركَا هـي الفزان)، وصياد الأرويّ (تينزولين، جنوبيّ المغرب)، والفارس حامل الشمس المشـعة (أبيزار، بجبـال القبائـل بالجزائر)، والفـارس المحارب (في

منطقــة أيير التركَية، بمالي). ومن الرســوم التي صورت بالألوان: الفرســين المتجابهين (إقليم بشــار بالجزائر) والنســاء المتبرّجات، والصياد حامل الرمح، والرقصات البهلوانية حول ثور (بتاســيلي نــ اجّر، صخرة الثور، في جبال التواركَ بالصحراء الجزائرية).

2 ــ ثقافات الأمازيغيين، أو مفعول «المثاقفة».

أ ــ البونية ثقافة فينيقية أمازيغية:

لأمــر ما كان الرومان يفرقون في التســمية بــين الفينيقيين الأصــلاء (Phoenicius) والبونيــين (Punicus) والافارقة (Afri، واحدهــمAfer . راجع تعليق Desanges علــى Plinius، ص 226). إن الســبب في نظــر المختصين هــو أن الجاليــات الفينيقية التي استوطنت المواقع الساحلية على ضفة البحر المتوسط من برقة إلى طنجة وعلى جزء من شــاطئ المحيط الأطلنتي، وحولتها إلى مراكز تجارية، اختلطت شيئا فشيئا بالأهالي الأمازيغيين - بحكم التعامــل الســلمي الموصول على مــدى قرون، والمتجــرد عن كل تعصب ديني - إلى درجة أنها أصبحت تتميز في مقومات حياتها الماديــة والمعنوية، عن فينيقيــي فينيقيا وعن الأهالــي الأفارقة، أي» البربــر «الذين بقوا على طبيعتهم الاولى. البونيون إذن جيل من الناس امتزجت فيهم الشــخصية الأمازيغية بالشــخصية الفينيقيــة امتزاجا بطيئا هادئــا، بما تحمله كل واحدة منهما من ميزات، فكان لذلك انعكاســات علــى ثقافة قرطاجة وغيرها من المدن الساحلية والقريبة من الساحل، وتكونت لغة» عامية «بين الفينيقية والأمازيغية (L'Afrique du Nord, 59...63). فإن كان

الباحثون الأول غفلوا عــن هذه الحقيقة فلأن الارث البوني المدون مكتوب بالحروف الفينيقية، وبالحــروف الفينيقية مجردة من كل حركــة صائتــة (Voyelles) . ولأنهم كانوا يغفُلــون عن توظيف معطيات اللغة» البربرية «في تشخيص الألفاظ والأسماء (Les Inscriptions libyques,5...16). ولهذا أصبحت الآن أسماء، كان يعتقد أنها قرئت على أوجهها الصحيحة، مثار شــك وتســاؤل، أكثرها شــهرة اسم الإلهة» تانيت«. أهو كذلك» تانيت «أم هو» تينيــت «أم »تينّيت» (La Carthage 175, Berbères, 115...). وما اســم هذه الإلهة، بصيغته» البربرية«، في قراءتيه أو قراءاته، إلا دليــل على أن قرطاجة كانت تدين بديــن الأمازيغيين القدماء، بما أنهــا بوأت» تانيت «مكانة الصدارة فــي معابدها وجعلتها هي» ربــة المدينة» (La Carthage punique, 175). وقد ورد في نصوص قديمة ما يســتفاد منــه أن الكهنة وســدنة المعابد في قرطاجة كانــوا أمازيغيــين (Silius Italicus, 8) في معظمهم . ولدينا في أفريقية الشمالية نموذج تاريخي آخر من نماذج المصاهرة الحضارية الموفقــة، ألا وهو نمــوذج انصهار العرب و» البربــر «معا في بوتقة العقيدة الاسلامية .

ب ــ إســهام ملك أمازيغي قديم في إغناء الثقافة اليونانية :

لــم يكــن الأمازيغيون يجــاورون اليونان مباشــرة، ولم يكونوا دائمــي الاتصال بهم. لكــن ثقافة اليونان فرضت نفســها على حوض المتوســط كله، ابتداء من القرن الخامس ق.م. بفضل سمو الفكــر الاغريقــي آن ذاك. فــلا غرابة إذن أن يكــون الملك المازيلي»

ماسـينيزا «يسـتقدم إلى عاصمته» قيرطا «العلماء والفنانين مـن أثينـا، ولا غرابـة أن ينبغ في شـتى فـروع العلـم والمعرفة حفيده، ريـب روما، يوبا الثاني، وأن يصنّف باليونانية، في التاريخ والجغرافيـا والفلسـفة والأدب وفقه اللغة المقـارن. فتعجّبَ من نبوغـه »فلوتارخـوس.Plutarkhos «، ومن كون» بربـري نوميدي (يصبـح) أكثـر الأدباء ظرفـا ورهافة حـس (,Les Africains, IX 146). ونصـب لـه الاثينيون تمثالا في أحـد مراكزهم الثقافية (Gsell + Les Berbers, I, 49, 50) تقديرا لكفاءته الفكرية، وقد نقل عنه علماء العصر القديم، وحسده معاصروه منهم ونَفِسُوا عليه نبوغه، بصفته» بربريا.barbarus «، وكأن نفاسـتهم عليه تسـربت إلى نفس المؤرخ الفرنسـي Stéphane Gsell، إذ ما فتئ Gsell يحـاول أن يغض من قيمة أعمال يوبا الفكرية، فتبعه في ذلـك تلامذته من الأوربيين الذين أرخـوا للمغرب الكبير في عهد الاسـتعمار الفرنسـي (Les Africains, IX, 157,58,61). كـما تبعـوه في تحاملهـم على أبيه يوبـا الأول من أجـل حرصه على سـيادة مملكتـه. والدافع عنـد Gsell ومن تبعوه هـو أنهم كانوا يعتبرون الفرنسـيين ورثة للرومان في أفريقية الشـمالية، ويرون أن» الأهالـي، Les indigènes «لايمكـن أن يكونوا إلا »أهالي «في الماضي والحاضر على السواء، بما أُشرِبَته الكلمة في لغتهم إذّاك من معاني الاحتقار.

ومـن مؤلفـات يوبا الثاني نخـص بالذكر كتابـه المعنون ب» ليبيـكا«، لأنه عني فيـه ببلاد الأمازيغيين. ومـن الطريف أن يوبا أشـار في ذلك الكتـاب إلى قصة» الأسـد الحقـود «التي لاتزال



الجدات في بوادينا، إلى يومنا هذا، يقصصنها على أحفادهن باللغة» البربرية «في ليالي السمر من فصل الشتاء. إن في ذلك لدلالة على أن الأدب الشفوي قد يُحفظ خيرا مما يُحفظ المدوّن. ولقد كان يوبا الثاني ذا ذوق فني رفيع، حسب ما أجمع عليه المؤرخون لعهده (Les Africains 161) قصة الأسد (Gsell, VIII, 263)، وقد لزم ذكره ذكر طبيبه» أوفوربوس،Euphorbus «الذي اكتشف ما لأحد النباتات المحلية من قدرة على تنشيط الفكر وترويح النفس. وباسم ذلك الطبيب يسمى ذلك النبات، في اللغات الافرنجية إلى اليوم: ...euphorbia, euphorbe.... وهو الفربيون، أحد أنواع اليتوع أو التيوع المعروف بـ «تاناغوت «و«تاناخوت «في الأمازيغية.

ج ـ أمازيغيون قدماء يتصدرون مصاف المفكرين والأدباء اللاتينيين:

نتج من مفعول »المثاقفة،L'acculturation « المفروضة من قبل روما على افريقية الشمالية أن نبغ في الكتابة باللاتينية أجيال متتابعة من الأمازيغيين، فأسهموا إسهاما مهما في إغناء الفكر والأدب الرومانيين، حتى من قبل أن تكون الأمبراطورية قد بسطت نفوذها على مواطن» البربر«. بما أن أول أديب أمازيغي الأصل لاتيني اللغة عاش في النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد، اي قبل نزول الرومان في أفريقية.

- **أديبان أمازيغيان من عهد الوثنية: أولهما» تيرنشي آفر، أو تيرنتيوس آفر، «Terentius Afer (185؟ ـ 159 ق.م.).**

لقد كان من عواقب الحرب البونية الثانية وانهزام قرطاجة فيها، أن حُمِل إلى روما صبي أمازيغي أسير، فاتخذه أحد أعضاء مجلس الشيوخ غلاما له، ثم أعتقه. فسمي الطفل باسم سيده ««Terentius. بالاضافة إلى نسبه «آفر،Afer «أي الأفريقي. فتضلع من معارف زمنه، في اللغتين اليونانية واللاتينية، إلى أن فاضت قريحته وهو ابن العشرين، فألف سلسلة من ست مسرحيات، كان يطالع الجمهور بواحدة منها في كل سنة، ما بين 166 و160 ق.م. فصارت له شهرة كبيرة دفعة واحدة، ونال الجوائز. فحسده الحساد واتهموه بالسرقة الأدبية، فدافع عن نفسه بما كان له من قوة. فأنصفه التاريخ من بعد، ورد إليه نقاد العصور المتعاقبة اعتباره كاملا وبينوا أن تأثيره في الأدب المسرحي بقي ظاهرا إلى حدود القرن السابع عشر. ومن مؤلفاته» الاخوة،Fratres «و» معذّب نفسه، «Meus carnifex و»الخصي،Eunuchus «. وهو صاحب القولة المشهورة» أنا إنسان، لايخفى عني أي شيء مما هو إنساني!«. ومن إفراطه في حب الأدب أنه مات حزنا بأرض اليونان، بعد أن ضيع في البحر مخطوطات له، وهو ابن الثلاثين (Les Grands Ecrivains du Monde, 238).

وثانيهما» أبولاي، Apuleius, Apulée «.

وُلد» أبولاي، أو أفولاي «بنوميديا في أوائل القرن الثاني، حوالي 125، وتوفي حوالي 170 م. بعد أن تعلم بأثينا رجع إلى بلده. فاتّهم هناك بممارسة السحر. فدافع عن نفسه بصلابة، وألف في الموضوع كتابا عنوانه» في السحر،«Magicae . وبعد ذلك

تفرغ للتأليف الجاد، إلى أن أصدر كتابا، في أحد عشر جزءا، وبه وضعه تاريخ الفكر في مصاف كبار الكتاب العالميين الخالدين. في كتابه ذاك، «التقمصات Les Métamorphoses» اتخذ الرواية الطويلة النفس مطية لوصف الأوضاع الاجتماعية وانتقادها في سخرية حينا، وفي شدة وصرامة أحيانا. فدافع عن المستضعفين، وطرق بكيفية غير مباشرة موضوعات فلسفية، مظهرا لنزعته الصوفية، ولتشوفه إلى الديانات المشرقية النشأة وولوعه بعبادة الالاهة المصرية» إزيس، « Esi, Isis. فوصف بـ» النوميدي المزعج «. ولكن اعترف له بصدق التعبير وبالبراعة في فني القصص والكلام. وكان هو نفسه يصرّح بأنّه تأثر في عمق بالفكر اليوناني (Les Grands Ecrivains du Monde, 370).

- كاتبان مسيحيان أمازيغيان في عهد المحنة:

مـن أبرز الكتاب الأمازيغيين القدماء الذين قاموا بالدعوة للمسيحية واتخذوها سلاحا لمقاومة الاستعمار الروماني - إذ كانت روما لاتزال وثنية -» تارتولي،«Tertullianus و»أرنوبي،Arnobius «. وقد عاشا كلاهما في» عهد المحنة« إذ كان النصارى يُعذّبون، ولم يكن يدافع بالقلم عن النصرانية إلا» الأفارقة» (Histoire du développement...II,762,763).

- تارتولي Tertullianus (حوالي 155 ـ حوالي 225 م.):

نشأ على الوثنية، ثم تنصر وتحمس تحمسا كبيرا للدفاع عن دينه الجديد، ودعا إلى التمسك بتعاليم المسيح القويمة وإلى

التخلي عن روح الطبقية الكنسية. وحرض الناس على التخلص من الخدمة العسكرية في الجيش الروماني. يعتبر كتابه» دفاعا عن الدين.Apologeticus «إحدى اللبنات الأولى الأساسية التي دشن بها الأدب المسيحي المتخصص في معالجة القضايا الخلقية في ضوء العقيدة. صدر ذلك الكتاب سنة 197م (Les Grands Ecrivains du Monde, 370).

- أرنوبي الأكبر :Arnobius

ولد هذا الكاتب بإحدى قرى نوميديا في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي. فدرس علم الكلام إلى أن صار أستاذا في تلك المادة. ثم تنصر وهو كهل، وألف كتابا واحدا بعنوان» ضدا على الوثنيين، Adversus nationes «. أصدره سنة 300 ميلادية. تحامل فيه على عبادة الأصنام، وراهن على أن الايمان بالله ضمان للفوز، كما راهن من بعده أبو العلاء المعري و« باسكال.Pascal «الفرنسي. وقد أهله عمله في سبيل عقيدته لأن يُعدّ عند المسيحيين من» آباء الكنيسة» (Dictionnaire français-latin).

- القديس أوغوستينوس Augustinus يساند روما، بصفته عمدة للكنيسة الرسمية:

ولد »أوغوستينوس «في قرية» تاكَاست «بنوميديا سنة 354م، ومات بعنّابة سنة 430م، إذ كانت تلك المدينة محاصرة من قِبَل الوندال.لم يتنصر إلا وفي عمره 33 عاما. كان من قبل أستاذا للبلاغة، فدرّس في قريته، ثم في قرطاجة، وروما وميلانو.

وبعد اعتناقه المسيحية رقي الدرجات الكنَسِيّة في ظرف تسع سنوات فقط. فأصبح أسقفا سنة 396م. وكرّس حياته لتنظيم الكنيسة الأفريقية وللتأليف الديني. وقد ترك للمسيحيين مؤلفات لاتزال حتى اليوم مرجعا لهم، يعتبرونها قاعدة صلدة لفلسفة أقانيمهم الثلاثة، منها» مدينة الله.La Cité de Dieu « و»اعترافات التوبة.Les Confessions «و» المراسلات.Les Lettres «. كان تبشيره تبشيرا رسميا يسير في خط كنيسة روما القيصرية. ولذا عارضه» الدوناتيون «وعلى رأسهم سمّيه »أوغوستينوس» الدوناتي الذي عُرِض على القضاء في أوائل القرن الخامس الميلادي (Prosopographie,102).

لقد كان» القديس «أغوستينوس «يتعاطف مع» الأفارقة«، أي مع الأمازيغيين ويدافع عن هُويّتِهم (L'Afrique du Nord, 349). ولكن في نطاق العمل التبشيري الرسمي. ومما يلفت النظر أنه هو المؤلف» الأفريقي اللاتيني «الوحيد الذي ضُبط تاريخ ولادته، كما ضُبِط تاريخ وفاته. والسبب في نظرنا هو أن أحد أبويه كان رومانيا، كما هو معلوم. وليس من المستبعد أن تكون «هُجْنَتُهُ «هي سبب موالاته للسلطة الرومانية السياسية الدينية.

د ـ الانتاج الفكري الأمازيغي رافدا للثقافة الاسلامية:

لم يندمج قط الأمازيغيون اندماجا كليا في إطار حضارة معينة كما اندمجوا في إطار الحضارة الاسلامية، وذلك لأسباب لا

مجال لشرحها في هذه العجالة. ويمكن القول بأن ذلك الاندماج الكلي تم بصفة نهائية في أوائل العهد الموحدي، لما اندثرت البقايا الأخيرة من دولة البرغواطيين، أي بعد عهد الفتوحات الاسلامية الأولى بخمسة قرون على وجه التقريب. وقد كان اندماجهم، في جملته، نتيجة لعلمهم الذاتي، بتعاون مع أفراد أو جماعات قليلة من المشارقة الذين قدموا أفريقية الشمالية مسالمين، خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين. فبعدما حملت جنودهم راية الاسلام إلى قلب أوربا الغربية، وبعدما تخلصوا من السيطرة السياسية المشرقية، اتجهت أنظارهم إلى أنفسهم أولا، ثم إلى غربي أفريقية السوداء، ابتداء من عهد المرابطين. فعلى أيديهم أسلمت القبائل الأولى من الزنوج في وادي السينغال، حيث لاتزال الصلوات الخمس تسمى إلى اليوم باسمائها» البربرية «.

ولكن، ليس المقصود هنا هو الاحاطة بتاريخ» البربر «بعد دخولهم في الاسلام، ولا الاحاطة بإسهاماتهم في بلورة الثقافة الاسلامية، لأن ثلاثة عشر قرنا من التفاني في خدمة الدين الحنيف، فكريا وأدبيا، لايمكن أن تقتضب في سطور أو فقرات. ولكن المقصود هو استشفاف نوعية الاسهام الأمازيغي من خلال مؤلفات مَنْ تُرجِمَ لهم في غير لبس بأنهم» بربر «.

ومن هذه الزاوية تكون الملاحظة الأولى التي يسجلها التحليل هي أن الأمازيغيين نشّطوا حركات التصوف. فكأن نزعة التأملات الاستبطانية متأصلة في نفوسهم منذ القدم، كما لوحظ في مؤلفات» تارنتيوس «و»أبولاي «في عهد الوثنية الأولى،ثم في مؤلفات» أرنوبي« و»تارتولي» المسيحيين (Les

Grands Ecrivains..). ونكتفي من العهد الاسلامي بذكر آثار أبي الحسن الشاذلي الغماري (ت 1258/656) صاحب» مجموعة الأحزاب «الذائع الصيت في العالم الاسلامي كله (مع التذكير بأن المتنبئين حاميم وعاصم بن جميل وأبي الطواجن ينتمون إلى قبيلة غمارة بالذات). فمريدالشاذلية أبي عبد الله الجزولي (ت 1465/870) الذي ترك للمغاربة مصنفه المشهور في الصلوات على النبي» دليل الخيرات«. لقد اثر الشاذلي والجزولي تأثيرا كبيرا في الفكر الصوفي الاسلامي. ولا يخفى على المؤرخين دور الصوفيين الأمازيغيين الآخرين الذين لايمكن حصر عددهم هنا. إلا أننا نرى من الضروري تخصيص ثلاثة منهم بالذكر لما لهم من شهرة في الأوساط الشعبية، ألا وهم ابو العباس بن العريف الصنهاجي، دفين مراكش (1088/481 ـ 1141/536) وأبو شعيب الدكالي، دفين أزمور، وابو يعزى، دفين الأطلس المتوسط .

وبعد الصوفية، يسترعي الانتباه الفقهاء الأمازيغيو الأصل، من حيث عددهم، سواء عند المالكية أو عند الخوارج الاباضية. فلنكتف بذكر فقهاء المالكية الأمازيغيين البارزين، أمثال وجّاج، وعبد الله بن ياسين، ومحمد بن تومرت، وابن أبي زيد القيرواني النفزاوي (922/310 ـ 996/386) صاحب الرسالة المشهورة، والامام المكودي، وابن عرفة الورغمّي (1316/716 ـ 1401/803)، وابن مرزوق العجيسي (1311/711 ـ 1379/781) وأبي العباس أحمد البرنوصي المعروف باسم» زرّوق« (ت 899 هـ) وأبي العباس أحمد الونشريسي (ت 1508/914)، وأحمد بابا الصنهاجي (1556/963 ـ 1627/1036).

وبعد الفقه يلاحظ أن الأمازيغيين ألفوا في النحو العربي وأجادوا التأليف. فتح لهم هذا المجال شيخ النحاة المغاربة عيسى بن عبد العزيز يَلَلْبخت الجزولي (ت 1210/607) تلميذ ابن برّي ومؤلف» المقدمة الجزولية «و«الأمالي«. وتبعه تلميذه هو، أبو الحسن بن معطي الزواوي (1169/564 ـ 1231/628) صاحب» الدرة الألفية في علم العربية «التي استنّ ابن مالك فيما بعد طريقتها التعليمية في إنشاء ألفيّته. وفي إثر الجزولي وابن معطي برز أبو حيان الغرناطي البربري (1256/654 ـ 1344/745)، شارح ألفية ابن مالك المشهور بمقارناته بين اللغات. وبرز أبو عبد الله بن أجرّوم الصنهاجي (ت 1323/723)، فطارت شهرته إلى الآفاق الاسلامية كلها بفضل مصنفه التعليمي» الأجرومية «الذي اعتُمِد في تدريس النحو العربي طوال ستة قرون.

يستخلص من هذا الاستعراض أن» البربر «أسهموا بقسط وافر في بلورة العلوم الاسلامية المتصلة بالدين مباشرة، شأنهم في ذلك شأن باقي الشعوب الاسلامية، لأنهم كانوا كثيري الحرص على صيانة العقيدة واستنباط ما في الأصول من قيم روحية وأحكام شرعية. يؤكد هذا القول سَبْقُ عدد منهم إلى رواية الحديث: نعني عكرمة البربري (24 - 105هـ) الذي كان يُرمى بإضمار انتمائه إلى مذهب الخوارج، ومن نهج نهجه كسابق، وميمون، ومحمد بن موسى (القاموس المحيط: برّ). لم يتميز» البربر «في شيء اذن عن سائر الشعوب الاسلامية في العمل من أجل خدمة الدين أولا وأخيرا. إلا أن الفاحص لما أنتجوه في النحو يجعلهم هم المتخصصين فيما يمكن أن نسميه بيداكوجية

اللغة العربية، إذ هم الذين أرسوا قواعدها بعدما كان الفرس قد أرسوا قواعد لاخراج فقه اللغة العربية إلى الوجود. ولا غرابة في ذلك لأن الفرس و«البربر» معا لم يكونوا يتكلمون العربية بالسليقة... ثم يرى الفاحص لانتاج الأمازيغيين أنهم كتبوا في التاريخ وأغزروا، خاصة في تاريخ المغرب. من مشاهير مؤرخيهم أبوبكر بن علي الصنهاجي البيذق (القرن الخامس الهجري)، وابن عذاري، والجزنائي، وابن غازي الكتامي، والفشتالي، والافراني، والزياني (بتفخيم الزاي وتخفيف الياء)، وأكنسوس، وغيرهم ممن صرحوا ببربريتهم، أو من يرى النقاد المشارقة في عملهم» نزعة بربرية «كابن خلدون. وممن وُفِّقوا من الأمازيغيين في تدوين الرحلات نخص بالذكر ابن بطوطة اللواتي وأبا عبد الله العبدري الحيحي، وعبد الله ابا سالم العياشي...

لكن إسهام» البربر «في قرض الشعر ـ العربيّ ـ وفي الأدب الإنشائي بصفة عامة لم يكن ذا وزن كبير بالقياس إلى إنتاج المشارقة، وحتى بالقياس إلى إنتاج العرب الأندلسيين، لا من حيث الحجم والكم، ولا من حيث الجودة والكيف بصورة أخص. ونرى السبب في ذلك هو أن جماهير الأمازيغيين كانوا لايعرفون اللغة العربية، وأن من قُدِّر لهم أن يتعلموها كانوا في أغلبيتهم لاينشؤون على الحديث بها عن سليقة، بل كانوا يجنحون في حياتهم اليومية العادية إلى التخاطب باللغة التي رضعوها مع اللبان، وهي الأمازيغية، ولذا برعوا في صناعة الكتابة مادام عملهم يهدف إلى التحليل والاستدلال والاستنباط، كما هو الشأن في الفقه والنحو والتأملات الصوفية الفلسفية، أو

إلى الوصف والسرد، كما هو الشأن في الرحلة والتاريخ. ولم يأتوا بطريف فيما هو إنشاء توليفي صرف، لا في النثر الفني ولا في الشعر. (بناء على هذا الاعتبار، لا يستبعد أن يكون ابن منظور، صاحب» لسان العرب «أمازيغي الأصل، كما تشير إلى ذلك نسبته: الافريقي). وكل من تألق نجمهم شيئا ما في سماء الشعر العربي، من» البربر» قد نشأوا في بيئة لغوية عربية أو قديمة العهد بالاستعراب، كسابق البربري المشرقي النشأة، وابن الزقاق البولوكَيني الأندلسي المولد والموطن، ومدغيس الزاجل، والامام البوصيري المصري المولد والنشيئة...أما الأغلبية من الأمازيغيين الذين تعاطوا القريض وهم منغمسون في مجتمعهم »المغاربي «المطبوع بالبربرة، فلم يفعلوا عن فيض خاطر، ولكن عن إرادة و«سبق إصرار «. ذلك شأن كثير منهم، حتى كبار الفقهاء والكتاب المفكرين أمثال أبي علي الحسن اليوسي ومحمد المختار السوسي . ولذا يمكن القول إن» النبوغ المغربي في الأدب العربي «انحصر طوال العصور في ما هو» انتفاعي «ولم يتجل بوضوح لا في شعر رفيع ولا في نثر فني من الطراز الأعلى. والسبب في ذلك هو بطء حركة الاستعراب» الجماهيري «كما سنبيِّن .

استعراب الأمازيغيين.

النسبي؛ عوامله ومراحله؛ وأسباب بطئه.

إن كان جيل من الفرس المسلمين نبغوا في الأدب الإنشائي بشقيه الشعري والنثري، نبوغا ظاهرا، فلأنهم نشأوا في عواصم البلاغة العربية بالعراق وخالطوا فصحاء العرب وقتئذ كانت العربية لا تزال متشبثة بمقومات فصاحتها الأولى، حيث كان الفتى منهم ينشأ عربي اللسان والجوارح معا، منذ نعومة أظفاره. وذلك ما لم يعرفه» البربر «لا في المغرب حيث كان العرب أقلية قليلة، ولا في الأندلس حيث لم يتيسر التآلف بين الشعوب التي تألف منها المجتمع الاسلامي. فبقدر ما كان اندماج الفرس في الوسط العربي سريعا بعد انهزامهم في القادسية، بقدر ما كان احتكاك الأمازيغيين بالعرب الوافدين على» جزيرة المغرب «احتكاكا شاقا عسيرا على الطرفين كليهما. فبينما كان الفرس يعيشون في أحضان الثقافة العربية الناشئة خلال القرن الأول الهجري، كانت المعارك والمناوشات متتابعة بين جيوش الولاة الأمويين وبين القبائل الأمازيغية. وبينما كانت الدعوة العباسية قائمة في خراسان يتعامل فيها العرب والفرس معاملة ود وتآزر، كان الغليان يسود بلاد المغرب بسبب تعسفات العمال الأمويين.

ولما استولى العباسيون على الخلافة بمساندة قوية من الفرس، كان المغرب قد استقل سياسيا عن المشرق، فكان من الطبيعي ان يستمر الأمازيغيون على حالهم في التخاطب بينهم باللغة الأمازيغية . فطرأ على العقيدة الجديدة في نفوسهم، ما طرأ من الانحرافات الطفيفة أو الخطيرة، وسجل التاريخ من ذلك ما سجله، في شأن البرغواطيين وغمارة خاصة، تلك الانحرافات من وجهة نظر المسلم تعتبر نوعا من الردة، لكنها من وجهة نظر السوسيولوجية التاريخية تعتبر ردود فعل ثقافية صادرة عن غريزة الحفاظ على الكيان الذاتي. ذلك هو مدلول إقامة الشعائر الدينية بالأمازيغية عند برغواطة وعند الغماريين. ولهذا يمكن ان نقول إن حركة الاستعراب لم تنطلق بمجرد دخول» البربر «في الاسلام، ولكنها انطلقت فيما بعد كما سنوضح. ولهذا يصعب التسليم بأن طارق بن زياد خطب في جنده بالعربية، ففهموا عنه بدون وساطة. إنّا نرجّح أن يكون إما خطب فيهم بالعربية وترجم عنه، وإما خطب فيهم بالأمازيغية ونقلت خطبته فيما بعد إلى العربية، مع ما يتحمل ذلك من الزيادة أو النقصان أو التبديل. فإن كان من غير الممكن أن يكون طارق جاهلا للعربية، نظرا لقدم عهده بها في لزومه لمولاه موسى بن نصير، فليس من المحتمل ولا من الممكن أن يكون جنده» البربر« الاثنا عشر ألفا يملكون ـ كلهم أو جلهم ـ ناصية لغة الضاد بحيث يفهمون ما يقول. ومما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن تلك الخطبة المشهورة أُلقيت أصلا بالأمازيغية، كونها أثارت في نفوس أولئك الجند» البربر «حماسة للقتال، حسب ما تفيده الروايات .

إن مــن المؤكد في ضوء ماجريـات التاريخ من عهد عقبة بن نافع إلى قدوم المولى إدريس جبل زرهون، أن حركـة الاســتعراب لـم تكــن ذات مفعول يذكر. وأنها لم تنطلق في بطء بطـيء إلا بعد توليــة قبائل» أوربا «(لا أوربة كما يكتبــه المؤرخون العرب) إدريس الأول سـلطانا عليها. وســتكون مسيرة الاسـتعراب في المغرب الكبير عامة، وفي المغرب الأقصى خاصة، مسيرة طويلة، بما أنها لم تبلغ مداها ونحن في القرن الخامس عشر الهجري. تمّ منها ما تمّ في مراحل أربع، تميزت أولاها وثانيتها بالبطء والتلقائية، وتميزت ثالثتها بالتســارع الاضطراري، بينما تميــزت رابعتها وهي الحالية بالتسارع المتزايد المثير لنوع من التمنّع .

1 - المرحلة الاولى في مسيرة الاستعراب.

اســتغرقت هــذه المرحلــة عهــد الأدارســة وعهــد المرابطين والعقــود الأولى من عهد الموحدين. في هــذه الحقبة الممتدة من قــدوم إدريس وليلى إلــى وفاة عبد المومن بن علــي الموحدي، على وجــه التقريب، كانت العربية محصورة فــي مجال حضري ضيق تقاســمها إياه الأمازيغية. كانت الســيادة للعربيــة في أحاديث الأسر الادريسية والأندلسية والقيراونية التي استوطنت مدينة فــاس، مع ترجيح الاحتمال أن أفراد تلك الأســر، لاســيما الذكور، كانــوا يضطرون إلى تعلم الأمازيغية بصفتها لغة الســواد من الســكان. وكانت لها الســيادة بطبيعة الحال في المساجد، حيث كانت تقام بها الصلوات الخمس ويتلى القرآن في حلقات الترتيل. وكانــت لها الســيادة في مــا كان يُكتب، على قلتــه آنذاك. هذا في فــاس وربما فــي وليلي وبدرجة أقــل بكثير في المــدن القلائل

الأخرى الموجودة في أقصى شــمالي المغرب فــي ذلك العهد. أما في البوادي حيث كانت تقطن الأغلبية الســاحقة من السكان، لاســيما النائيــة منها، فلــم تكــن للعربية إلا أصــداء ضعيفة تحملهــا معها الدعوة الاســلامية المجددة، خاصــة أن تلك الدعوة نفســها ما كان يمكنهــا الاعتمــاد بالأولويــة إلا علياالأمازيغية. ومن الصعب جــدا أن يُعلم مثلا أكانت خطب الجمعة، في عهد الأدارســة ومن جاء بعدهم قبل الموحدين، تلقى بالعربية وحدها في معظم المســاجد، أم كانت تلقى بالأمازيغية أم بهما معا؟... يسمح بهذا السؤال كون الأذان لإعلان الصلاة يلقى بـ» البربرية «في أوائل عهد الموحدين وكون الخليفة عبد المومن بن عليٍّ يحرر رسالاته الدينية ويخطب في الناس أيام الجُمَع بالأمازيغية، وكون البــلاط الموحدي يعتمــد الأمازيغية لغة للتخاطــب في المجالس (المســند الصحيح في مآثــر..343، 344). ولايعزب عن الأذهان أن أمير المسلمين يوسف بن تاشــفين نفسه، على تقواه وورعه، لم يكــن يتكلم إلا بالأمازيغية، ولم تكن اســتهانته لمدح الشــعراء الأندلسيين صادرة إلا عن أمرين، أولهما جهله للعربية، وثانيهما أن مــن تقاليد الأمازيغيين أنهم لايتقبلون المدح إلا على مضض، لاسيما المدح الحضوري .

فبمــا أن التمــدن كان بطيئــا، وأن ســكان البــلاد كانــوا في معظمهم رحّلا أو أشــباه رحّل يتنقلون بين الجبال والسهول وبين الواحــات والنجود والصحــاري، فقد ظلت المناطــق المغربية، في هــذه المرحلة، خارجة عــن مجال النفوذالفعال للغــة العربية، إلا منطقة واحدة، هي التي كانت صلة وصل بين قطبي الإشــعاع

للثقافة العربية، أي بين فاس والأندلس. هي المنطقة المعروفة اليوم باسم» جبالة «. كانت القبائل القاطنة بتلك الجهة قارة السكن منذ قرون، ولذا يمكن الجزم بأنها أخذت تستعرب، ببطء ولكن باستمرار، على حَافتَي الطريق الرابطة بين فاس والأندلس، انطلاقا من العهد الذي تمتنت فيه العلاقات بين العدوتين، أي من أواخر القرن العاشر الميلادي الموافقة لأواخر القرن الرابع الهجري، وسنعود فيما بعد إلى نتيجة استعراب» جبالة «كما نشاهدها اليوم.

2 - استعراب المغرب في مرحلته الثانية.

دشن هذه المرحلة، عن غير قصد، عبد المومن الموحدي باستقدامه إلى المغرب (الأقصى) القبائل العربية التي كان الفاطميون من قبل قد أباحوا لها غزو إفريقيا انطلاقا من الصعيد المصري. فلما أخذت تلك القبائل تجوب الأنجاد في المغرب الشرقي والحواشي الصحراوية للأطلسين الكبير والصغير، شدّ وجودها أزر اللغة العربية، لاسيما أنها أخذت تتسرب شيئا فشيئا إلى السهول الأطلنتية وإلى بعض الممرات الفاصلة بين الكتل الأمازيغية الكبرى التي يُتواكل في الدفاع عنها بين تلك الكتل (les Arabes en Berbérie). اذاك أخذت المناطق السهلية الشاطئية تستعرب، قي بطء من دون شك ولكن باطراد. خاصة أن قبائل» تامسنا «الأمازيغية كان المرابطون والموحدون قد كسروا شوكتها بقوة، وجعلوها فلولا غير متماسكة. فتقلصت في تلك النواحي رقعة التخاطب بالأمازيغية، وأخذت تنحصر في جزر لغوية مثل ما عرف عن» صنهاجة الذل «في ما حول تيطّ

(مولاي عبد الله أمغار حاليا) و«مازيغن «(وهي الجديدة الحالية) وأزمور. ثم امَّحت. وهكذا استعربت مناطق دكالة والشاوية (أي تامسنا)، و«أزاغار «وهو» الغرب«. ومما يشهد على تداخل الفصائل العربية مع الفصائل «البربرية «في دكالة والشاوية خاصة هو تداخل الألفاظ والتراكيب والتعابير الأمازيغية في اللهجات المحلية. وبتنقل» الجيش «المخزني من منطقة إلى أخرى استوطنت قبائل عربية جزءا من المناطق السهلية الأخرى، عند سفوح الجبال والممرات قرب العاصمتين الكُبريين فاس ومراكش، وتوغلت قبائل أخرى في الصحراء المغربية الغربية وموريتانيا واختلطت هناك ببقايا» زناكَة «(صنهاجة اللمتونيين). وهكذا تضافرت العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية طوال عدة قرون لرسم الخريطة اللغوية التي وجد عليها المغرب عند وقوعه في قبضة الاستعمار الأوربي الفرنسي والاسباني، وهي خريطة تغيرت معالمها في مناطق معينة، بين عهد الموحدين ومطلع القرن العشرين، كما بينا. لكن حركة الاستعراب في المناطق الاخرى ظلت بطيئة كما كانت من قبل، خاصة في الجبال والواحات، سواء في المغرب أو الجزائر، وبالأحرى في قلب الصحراء حيث انعزلت قبائل التواركَ أما في المدن، فإن حركة الاستعراب تسارعت ابتداء من عهد المرينيين، في فاس بالخصوص، لما تضافرت عوامل ثلاثة على تنشيطها: سياسة المرينيين التعليمية، ثم هجرة المسلمين من الأندلس إلى مدن شمالي البلاد، ثم تولي الشرفاء مقاليد الملك، مع العلم بأن السلاطين الشرفاء أنفسهم كانوا إلى عهد قريب يعرفون لهجة» بربرية

«أو أخرى. كان محمد بن عبد الله العلوي» يكلم البربر في لسانهم« (الاستقصاء نقلا عن الزياني) وكذلك الحسن الأول، حسب ما سمعناه من شيوخ قبائل الأطلس المتوسط الذين نشأوا في أواخر عهده، ومن المستبعد أن يكون أعوان المخزن لايقتدون بالسلاطين في الحرص على تعلم «البربرية«، خاصة منهم عمال الأقاليم وقواد الجيش .

3 - المرحلة الثالثة: الاستعراب وسيلة ثقافية لمقاومة الاستعمار الأوربي الاستيطاني.

لما سُلطت على المغرب جيوش الاحتلال في مطلع هذا القرن الميلادي، كان رد الفعل الأول هو المقاومة بالسلاح على المستوى الشعبي، فانتقلت المعارك بسرعة من السهول إلى الجبال، واستمرت هناك المشادّات الحربية بين القبائل ــ الناطقة كلها بالأمازيغية ــ وبين الفرنسيين والاسبان ما لايقل عن ربع قرن. فخرجت القبائل المقاومة من المعمعة، سواء في الريف أو في الأطالس الثلاثة، منهوكة القوى بشريا واقتصاديا. فضعفت من جراء ذلك المكانة الاجتماعية والسياسية التي كانت لها من قبل. وفي أثناء تلك الحقبة بالذات (1912 ـ 1937) ظهرت في المدن البوادر الأولى لقيام حركة وطنية مغربية ترمي إلى تنظيم مقاومة سياسية، بتعبئة المشاعر الدينية على أسس جديدة، كان قد وضعها في المشرق جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده لتجديد الفكر الاسلامي، خلال القرن التاسع عشر. وتبلورت في الأذهان الخطوط العريضة لاستراتيجية المقاومة» السياسية ـ الدينية «سنة 1930، عندما استصدر الفرنسيون ما أسموه

بـ «الظهير البربري «في نطاق عملهم الاستعماري المرتكز على مبدإ» فرِّق تسد«. فتطلع الوطنيون إلى معرفة الفكر السلفي المجدِّد، واشرأبت أعناقهم إلى المشرق من أجل استيراده، وأسسوا» المدارس الحرة «سعيا لنشر تعاليمه في أوساط الشباب، وأُصلحت برامج جامعة القرويين. فنشطت بذلك الثقافة العربية الإسلامية نشاطا كبيرا، وساعد على انتشار مضامينها ظهور الصحف المناهضة للظلم الاستعماري. فاهتم المغاربة بالدعوة الاستقلالية، كل على قدر ما يستطيع حسب موقعه الاجتماعي والاقتصادي والجغرافي. وقويت رغبتهم في تعلم العربية، إذ صار الحافز الديني مدعوما بالحافز الوطني . أضف إلى ذلك أن الشباب أولعوا بالاستماع إلى الأغاني الغرامية المشرقية على أمواج الاذاعة أو من أسطوانات الفونوغراف، وأن الأناشيد المحمِّسة للنضال كانت تستحوذ على مكامن الانفعالات الجماعية في المناسبات الاحتفالية. فخدم ذلك كله انتشار اللغة العربية، لاسيما أن وسائل النقل والمواصلات كانت قد تخطت عهد الدواب والخيل والابل و«الرقّاص «إلى عهد الحافلة والقطار والهاتف والبريد السريع.

في هذه المرحلة بالذات ـ أي ما بين 1912 و 1955 ـ استعربت بعض المجموعات القروية المتوسطة الحجم، كقبيلة غياثة المجاورة لمدينة تازة، واستعرب عدد لابأس به من العائلات الأمازيغية التي هجرت إلى السهول والمدن طلبا للرزق، وكثرت بعثات الطلاب المتوجهة لمصر، من «المنطقة الاسبانية «على الخصوص، وساهمت حتى المدارس المعروفة آنذاك باسم» المدارس الفرنسية

المغربية «في تعليم اللغة العربية لابناء الأعيان في الحواضر، وتخرجت من ثانويات» مولاي إدريس «بفاس، و«مولاي يوسف «بالرباط و«سيدي محمد» بمراكش أجيال من الطلبة، قليلة العدد لكنها متينة التكوين في اللغتين العربية والفرنسية. أما في »المدارس الفرنسية المغربية الحضرية» (écoles urbaines) فكانت حصة المواد العربية لاتجاوز ساعتين ونصفا في الأسبوع (بدلا من أربع ساعات في مدارس أبناء الأعيان). وفي المدارس »الفرنسية المغربية القروية« ـــ التي كان عددها ضئيلا جدا ـــ كانت حصة المواد العربية منعدمة (1920Bulletin de l'enseigment...) حيثما كانت توجد تلك المدارس. وفي سنة 1947 ارتفعت حصة المواد العربية في جميع «المدارس الحضرية الفرنسية المغربية «إلى سبع ساعات، ثم ارتفعت إلى تسع ساعات وعشر دقائق سنة 1950، وتقرر في السنة نفسها مبدأ إدارج المواد العربية في برامج المدارس المهنية (07.10 س) والمدارس القروية (08.10س) (,1950Horaires- Programmes Instructions,). أما بإعدادية أزرو (Le Collège Berbère d'Azrou) فقد تطور الوضع كما يلي، فيما يهم الأقسام الثانوية الأربعة: من سنة 1928 إلى سنة 1935 كانت» البربرية «شبه إجبارية، وكانت العربية تُدرَّس من قبل مدير الاعدادية نفسه (السيد Roux المبرز في الأدب العربي) خارج الحصص العادية، في ظروف مادية ومعنوية مزرية، بمعدل ساعة في الأسبوع. ومن سنة 1935 إلى سنة 1941 أدرجت ساعة اللغة العربية في الحصص العامة الرسمية. كان مدير الاعدادية

(السيد Bisson المجاز في العربية) يلقن فيها مبادئ النحو العربي باللغة الفرنسية، بالاضافة إلى مبادئ الترجمة. في هذه الفترة صارت مادة اللغة »البربرية «مادة اختيارية تلقن خارج الحصة الرسمية العامة. وفي أكتوبر 1941 ارتفعت حصّة اللغة العربية إلى ثلاث ساعات في الأسبوع، و عيِّن السيد أحمد الأخضر غزال ( ) أستاذا للمواد العربية، وظلت» البربرية «مادة اختيارية تدرَّس تحت إشراف» معهد الدراسات المغربية العليا « كما تدرَّس في مراكز أخرى كفاس ومراكش. وابتداء من سنة 1949 صارت حصة المواد العربية أربع ساعات، ثم أحدثت أقسام إعداد الباكلوريا.

حرصنا أن نثبت هنا هذه المعلومات، فيما يتعلق بإعدادية أزرو، لانه كثيرا ما يقال ويكتب في الموضوع أشياء تمليها مشاعر وطنية في غير تحرّ للحقيقة المجردة. بينما ينبغي أن تسجل للتاريخ حقائق أخرى يُخشى أن يغمرها النسيان. منها مثلا أن منطقة الأطالس الثلاثة ظلت خاضعة، طيلة عهد « الحماية«، للحكم العسكري الفرنسي، لا يُتَجَوَّل فيها إلا بإذن، سكانها مجبرون على تأدية التحية العسكرية للضباط الفرنسيين، مفروض على كل ذكر بالغ منهم أن يقوم بالخدمة الاجبارية في الاوراش لمدة أربعة ايام من كل سنة؛ ونزلاء سجونها ملزمون بإنجاز جميع الأعمال الشاقة التي تخطر ببال الحاكم، يُصفَّد منهم في الحديد كل من سوَّلت له نفسه أن يحتج أو يتذمر، ويساق دامي الرسغين، وهو يرسُف في قيوده، إلى مقالع الأحجار وما شاكلها من أماكن الكد والكدح .

4 - الاستعراب يتسارع ويصبح تعريبا مقصودا في نطاق إديولوجيا يكتنفها اللبس.

كان العامل الأول والأقوى في استعراب من استعرب من الأمازيغيين، خلال المرحلتين الأولى والثانية، هو صدق العقيدة الاسلامية وتقديس اللغة العربية والتعلق بالقبلة. وكان طريق الاستعراب هو ممارسة الشعائر الدينية وحفظ القرآن والاحتكاك بمن استوطن المغرب من العرب. لكن عاملا آخر ترتب على وجود العامل الأول، وهو العامل السياسي الاجتماعي . لايخفى أن الاسلام لايفصل الدين عن الدنيا. ومن نتائج ذلك أن كل ممارسة سياسية تستوجب الدعوة باسم الاسلام، وأن مشروعية الحكم والسلطان لايمكن أن تُستَمد إلا من التقاليد الاسلامية. وبما أن التقاليد الاسلامية السُنِّية تستوجب على المرشح للامامة (أي للحكم) أن يكون قرشيا، فقد صار من المتحتم على كل ذي طموح سياسي أن» يثبت «قرشيته. فتبارى الناس في ذلك »الاثبات« وأنبت المغرب غاباً من» الشجرات القرشية «و«شجرات «الانتماء إلى الدوحة النبوية، التي بها يوصل إلى المكانة الاجتماعية المؤهِّلة لمشاركة» أهل الحل والعقد «في اتخاذ القرار السياسي (Esquisse d'histoire religieuse; Histoire politique du Maroc). وهكذا تتسلسل مواقف الفرد من انقطاعه عن عشيرته الأمازيغية في مرحلة أولى، إلى تعلمه العربية وعلوم الدين، إلى اندماجه في وسط حضري أو قروي غير وسطه الأصلي، إلى إخراجه »شجرة «يعلن بها انتسابه إلى بيت الشرف النبوي، أو على الأقل إلى قبيلة قريش. هذه

الظاهرة لازمت تاريخ المغرب ابتداء من عهد الموحدين. ولاشك أن بوادرها الأولى برزت للوجود في عهد الأدارسة، ولعل تفاقمها هو الذي حمل موسى بن أبي العافية المكناسي على اضطهاد كل من يدعي الشرف. وعلى كل حال، كانت هذه الظاهرة عاملا من أقوى عوامل الاستعراب، تستدرج الأمازيغي من طلب الرزق أو علوم الدين إلى التماس المكانة الاجتماعية أو السياسية، إلى التنكر لأصله .

هذان العاملان المتداخلان، الديني والسياسي الاجتماعي، لايزال مفعولهما ساريا إلى اليوم، لاسيما في الأوساط التقليدية، وقد دعمهما، كما رأينا فيما سلف من القول، عزم المغاربة على مقاومة الاستعمار الأوربي المسيحي خلال الحقبة الممتدة من 1912 إلى 1955. فإلى هذا التاريخ (1955) كانت حركة الاستعراب منذ انطلاقتها الأولى في عهد إدريس الأول، وخلال مراحلها الثلاث التي حددناها، حركة تلقائية توجهها إرادة الأمازيغيين أنفسهم، وكان الاستعراب وسيلة ليس غير. ولما جاء عهد الاستقلال تفجرت الطاقات المكبوتة في طلب العلوم على اختلاف أنواعها، مع ترجيح كفة العلوم الدُّنيوية ـ لأول مرة في تاريخ المغرب ـ على كفة العلوم الأُخروية. فاتخذت السياسة التعليمية شعارات أربعة، هي : التوحيد، والتعميم، والتعريب، و«المغربة«. وتبنّت الأحزاب هذه الشعارات بتفاوت في الاقتناع بصلاحية مضامينها غير الواضحة. وفي تلك الأثناء ازداد المغرب تأثرا بالمشرق سياسيا وثقافيا. فظهر للعيان شيئا فشيئا أن من وراء شعار التعريب ـــ الهادف مبدئيا إلى إقصاء

اللغة الفرنسية من المجال الثقافي ــــ غاية غير مصرَّح بها، هي طمس المعالم الأمازيغية في النسق الحضاري المغربي، وجعل اللغة الأمازيغية منبوذة لا يُهتم بها حتى على صعيد الدراسات النظرية كما هو معمول به في كبريات الجامعات العالمية، وذلك في نطاق دعاية، بل دعايات سياسية يكتنفها اللبس من حيث إنها ترتكز على القيم الاسلامية تارة، وعلى إديولوجيا القومية العربية تارة أخرى، أو حتى على» القيم الوطنية «إذ توهم نفسها وتوهم الجيل الصاعد أن» الظهير البربري «هو الخطيئة الأولى التي ينبغي «للبربر «ان يكفِّروا عنها بالاستعراب السريع غير المشروط. وكثيرا ما تخلط تلك الدعايات (المتضاربة فيما بينها أحيانا) المشاعر الدينية بمشاعر الانتماء إلى» العرق العربي « وتحوِّل الرغبات والمتمنيات إلى تعازيم ترددها صباح مساء لعلها تفي بالمطلوب، كما يتجلى ذلك في عبارتي» العروبة والاسلام «(بتقديم الانتماء العرقي على العقيدة) و«المغرب العربي « (بتأكيد عروبة المغرب خشية أن يحدث في شأنها نزاع). ولما كانت هذه الدعاية تتجاهل بنية المجتمع المغربي السوسيولوجية، وتتناسى تاريخ المغرب وما يتضمنه من عبر لابد من الاعتبار بها، كان من المتوقع أن يصدر رد فعل عن كل مغربي له مشاعر أمازيغية «معقلنة «أو غير »معقلنة «. فنشأ بالفعل تيار فكري تجسم أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات، في ظهور جمعيات ثقافية أمازيغية النزعة وقفت منها السلطات السياسية ــ إلى حد الآن ــ موقف المنع غير المعلن، سواء في المغرب أو في الجزائر. وهكذا لا تزال عملية» التعريب» متواصلة

يتحمس لمساندتها من يتحمس على مستوى الدولة أو على مستوى الهيئات أو مستوى الأفراد، بما يحتمله التحمس من غفلة عن الواقع، ومن التغاضي عن الحقيقة، ومن ميل إلى التزييف والتحريف، ومن تجاهل لمشاعر الناس. وهكذا أصبح الأمازيغيون لأول مرة في تاريخهم الاسلامي يشعرون بأن هناك إرادة غير إرادتهم الذاتية تدعوهم إلى الاستعراب بالحُجَّة العرقية الملفوفة في لفائف الحُجَّة الدينية (1).

5 - الوضع اللغوي بعد ثلاثة عشر قرنا من الاستعراب:

اللغة الرسمية في المغرب هي اللغة العربية. ولأمر ما نص الدستور على ذلك، لأن الدساتير عادة تُغْفِل هذه المسألة، باعتبار أن اختيار اللغة معبر عنه ضمنيا. ويستخلص من خطب المسؤولين، من حيث أشكالها ومحتوياتها أن المقصود بالعربية هو الفصحى، لأن ما سواها ما هو إلا» لهجات«. في هذا الاختيار أيضا تأكيد للانتماء العربي. فنتج من ذلك أن فئات من المثقفين عامة، ورجال التدريس خاصة، يتبارون على الظهور بمظهر من ذَلَّلَ الفصحى وجعلها طوع لسانه وقلمه. ونتج من ذلك أن الخطباء المغاربة أصبحوا أشد الناس حرصا على تطبيق قواعد النحو والصرف والاعراب، حتى إن المشارقة يَعجَبون لذلك، وحتى إن بعض المتفصحين يُحرجون الناس ويحرجون أنفسهم بما في مواقفهم الخطابية من تكلف. ثم إن من بين المثقفين من يميل بحكم تكوينه الأول إلى التخاطب والكتابة بالفرنسية. وكثيرا ما يندِّد بسلوكهم أنصار العربية ويعدونهم مُستَلَبين .

أما الشرائح الاجتماعية العريضة من المغاربة فلغتها المعتادة المنطوق بها عندهم عن سليقة، فإما هي» الدارجة «أي العربية» العامية «التي لا إعراب فيها، وهي لغة مشتركة بين جميع السكان على وجه التقريب، مع ما يطرأ عليها جهويا من تغيرات في الجرس والنبرة والالفاظ؛ وإما هي الأمازيغية المنقسمة إلى ثلاث لهجات رئيسية يتميز بعضها عن بعض بالجرس والنبرة والالفاظ أيضا، والتفاوت في التأثر بالعربية. ولاسبيل في الوقت الراهن إلى إحصاء عدد المغاربة الذين لا يزالون يعرفون الأمازيغية ويتكلمونها يوميا، لأن الدوائر المسؤولة ألغت منذ الاحصاء الثاني للسكان في عهد الاستقلال، الاهتمام بإدراج» البربرية «بين اللغات التي يُحتمل في المواطنين أنهم يعرفونها؛ وإذا صرح أحدهم تلقائيا بأنه يعرفها أجيب بأنها ليست بلغة. وإنما بإمكان الباحث أن يطلع على عدد المغاربة الذين كانوا سنة 1939 يتكلمون الأمازيغية، في منطقة النفوذ الفرنسي إذاك، بجرد ما هو وارد في الوثيقة الادارية التي عنوانها: « .Répertoire»
alphabétique des confédérations...

لكنّ ما يهمنا أكثر هنا هو إظهار ما من تطابق بين اختلاف اللهجات العربية المغربية وبين تتابع المراحل الأربع التي مر بها الاستعراب. نجد أولا اللهجة الأقدم نشوءا، وهي لهجة «بني يازغة «(الذين عرفوا قديما باسم» إزغيتن«). هذه القبيلة الصغيرة المنزوية على نفسها بين القبائل الناطقة بالأمازيغية في شرقيّ الأطلس المتوسط، لا تزال تستعمل إلى الآن، أو إلى زمن جد قريب، صيغة المثنى في ذكر اليَدَيْنِ (لْيُدّيْن) والرِّجْلَيْن

(رْجْلَيْن) والعَينين (لْعِيْنَيْن) والأذُنَيْن (لْوُذْنَيْن)، ولاتزال تستعمل لفظة» لْفَا «بدلا من» لْفُمّ «أي الفم، وحرف القاف منطوقا قافاً. وقبيلة بني يازغة هذه قبيلة» بربرية «الأصل كانت قاطنة في المكان الذي بُنيت عليه مدينة فاس أو في جواره. وقد كانت إلى عهد قريب تدّعي أن أراضي» رأس القُليعة «الواقعة قرب باب فتوح ملك خالص لها فُوِّت عليها بصورة غير شرعية في عهد ما. ويُلْحَق باللهجة اليازغية لهجة جبل زرهون، ثم لهجة قبائل» جبالة «المتعددة. هذه اللهجات لا أثر فيها لقلب القاف كافا معقودة، فيما هو لفظ عربي أصيل، بينما يحدث ذلك القلب في حرف الجيم لسبب يستحق أن يبحث عنه. لكنها لم تتخلص على قِدَم استعرابها من تراكيبها ذات الطابع الأمازيغي، ولا من إعمال القواعد الصرفية الأمازيغية وإسقاطها على التعابير العربية. من الطريف مثلا أن تسمع السقّائين (الكَرابة) ينادون في الأسواق» ها لْما باردين«! . والسر هو أن الماء يُعبَّر عنه في الأمازيغية بجمع لا مفرد له. وبالاضافة إلى هذا تتميز تلك اللهجات بمحافظتها على الكلمات» البربرية« غير معربة الصيغة، كما هو الشأن في» أباريق «أي اللُّطم و» أزدم «أو» تازدمت «حُزمة الحطب، إلخ... وتتميز بجرسها ونبراتها الماثلة عند» جبالة «خاصة في ميل شبه خفي إلى الكشكشة عند النطق بالكاف. وتتمثل المرحلة الثانية من مراحل الاستعراب، أولا في اللهجات المنتشرة في السهول الأطلنتية ونجود» تادلا« و الصحراء الغربية ومناطق أخرى متفرقة حدث فيها اندماج لغوي بين القبائل الأمازيغية والقبائل العربية التي استقدمها

الموحّدون. لكن الاندماج لم يطمس شواهد الماضي الدالة على الانتماءات الأصلية، بحيث نجد تلك الشواهد في مُعطَيَيْن اثنين، أولهما أسماء القبائل نفسها، أو أسماء البطون وأسماء الأفراد أحيانا) دكالة = دّووكال؛ مولاي عبد الله أمغار؛ أيت فلان وأيت فلان، في قبيلة زعير؛ زمّور «العرب «المرتبطة عضويا بزمّور»الشلح«...)؛ وثانيهما هو المعجم اللغوي المستعمل، لما يوجد فيه من المفرادت الأمازيغية المعرّبة (الزكَاوة: المزكَور؛ ركَل إلخ ...) بتفاوت في الكثرة والقلة بين «تادلا « ودكّالة والشاوية والغرب. وقد نجد قبيلة عربية لم تندمج فيها عناصر أمازيغية كثيرة، فيلفت نظرك كونها محتفظة بكثير من أساليب التعبير الخاصة بالعربية، نذكر كنموذج لها قبيلة »الحياينة «القاطنة بإقليم تاونات. ولاشك أن ما حدث في البوادي المغربية من» اندماج لغوي «قد حدث في البوادي الجزائرية والتونسية والليبية، وحدث في صعيد مصر أيضا حيث اختلطت، في عهد الفاطميين، قبائل هوارة الأمازيغية بمن سبقها إلى هناك من بقايا القبائل العربية التي هجرت نحو الغرب .

وتتمثل المرحلة الاستعرابية الثانية، ثانيا، في آثار هجرة المسلمين من الأندلس، بعد سقوط غرناطة في لهجات فاس وسلا والرباط وتيطاون وإشّاون (المحرف اسمها إلى شفشاون). لاشك أن أفواج المهاجرين حملت معها من العدوة الأخرى مفردات وأساليب تعبير أثرت في لغات المدن المشار إليها. لكنها لم تُجَرِّدها من تراثها الأمازيغي المتمثل في ظواهر فونولوجية ومعجمية وتركيبية. وحسب ما تفيده المقارنة السريعة الأولى،

إن مدينة فاس هي التي حافظت أكثر على ذلك التراث .

وفيما يخص مرحلتي الاستعراب الأخيرتين، الثالثة والرابعة، من حيث تأثيرهما في تطوير خريطة المغرب اللغوية، نقول باختصار إنهما خلقتا الظروف الملائمة لتوحيد اللهجات العربية، بحيث أصبح الفاسي يتخاطب في يُسر مع الدكّالي، وصار الفيلالي يتفاهم بدون عناء مع »الجبلي«؛ وخلقت نوعا من الترابط والتفاعل بين «العامية «و«الفصحى «لم يكن معهودا من قبل بفضل الاعلام و«التمدرس «. لكنهما تميزتا باتّجاهين ثقافيين متعارضين مصطنعين كليهما. تميزت المرحلة الثالثة (1912-1955) بعمل الفرنسيين من أجل إبراز الثقافة الأمازيغية الأصلية إبرازا مُغرِضاً غير طبيعي (مع السعي في تفتيت تلك الثقافة نفسها)؛ لكن عمل بعض العلماء اللغويين الفرنسيين (والأوربيين عامة) المتجرِّدين من كل نية سياسية أفاد الثقافة الأمازيغية الأصلية، وأفاد اللغة الأمازيغية خاصة، لأنه عرَّفها بنفسها وبإمكاناتها الذاتية، بحيث لايمكن التغاضي عن نتائج ذلك العمل، ولا يمكن طرحه من ميزان التراث الثقافي» المغاربي». وتميزت المرحلة الرابعة، أي هذه التي بدئت سنة 1955 ولم تنته بعد، بتهميش الأمازيغية تدريجيا. فبعد أن كانت الأمازيغية لغة يُتخاطب بها في أعلى دائرة من دوائر الدولة منذ أقل من قرن، أصبح استعمالها في نظر بعض رجال القضاء ورجال الادارة والسلطة على الأقل، محظورا حتى على من لايعرف سواها، وذلك تطبيقا لحرف القانون. وتميزت هذه المرحلة بظهور عقلية» علمية «يكاد يختص بها المؤرِّخون التقليديون وتلامذتهم من

الطلبة والأساتذة الجامعيين وغير الجامعيين؛ يتوخى المتّسمون بتلك العقلية طمس المعالم الأمازيغية في الشخصية المغربية، ومصادرة ما تمكن مصادرته من إيجابيات التاريخ لفائدة غير الأمازيغيين، وترك سلبيات الماضي» للبربر«. فنشّأوا في هذه العقلية جيل الاستقلال وبالغوا أحيانا إلى أن أملّوا. لكنهم صاروا مدرسة لمن فيه استعداد من المسؤولين الكبار. حتى إن أحد هؤلاء منع على مكاتب الحالة المدنية مثلا تسجيل أسماء المواليد كلّما ظهر أنها أسماء» بربرية «الأصل كـ» إيدر« و«إيزا »و«تودا «. هذا بينما يُغَضّ الطرف عن التجاوزات المخلة بروح الدستور وحرفه، كأن يُكتب أو يُقال في النصوص والخطب الرسمية والشبيهة بالرسمية» المغرب العربي «بدلا من »المغرب الكبير «و«اللغة القومية «أو» اللغة الوطنية «بدلا من» اللغة الرسمية» بخصوص اللغة العربية، مع أن أسباب النزول في اختيار كل من العبارتين» المغرب الكبير» و«اللغة الرسمية « معروفة عند أهل الحل والعقد .

والخلاصة من كل هذا أن مسيرة الاستعراب في المغرب كانت جد بطيئة طيلة اثني عشر قرنا ونيف، وأنها تسارعت شيئا ما في النصف الأول من القرن العشرين بحكم ضرورة التعبئة باسم الدين من أجل مقاومة الاستعمار الأوربي، ثم تغيرت ظروفها الاجتماعية والسياسية في عهد الاستقلال. ولقد كان لبطئها سببان، أحدهما تاريخي، هو انفصال المغرب عن المشرق إثر معركة بكَدورة، وثانيهما جغرافي، وهو ضعف العمران و«التمدن «. فلو كان» البربر» متجمّعي السكن

لتحقق أحد الاحتمالين: إما أن ينمّوا ثقافتهم الذاتية ولغتهم بدافع الشعور القومي، وإما أن يستعربوا بسرعة كما استعرب المصريّون في وادي النيل. وإذا لم يُحقّق لا هذا ولا ذاك، كان عامل استعرابهم النسبي البطيء هو الدين وما يتبع الدين من نواميس السياسة. إن العقيدة الاسلامية هي التي عرّبت من تعرّب من الأمازيغيين، كما أن العقيدة المسيحية هي التي» لتّنت « من تَلتّن من الشعوب الأوربية .

خصوصيات الأمازيغيين ومميزاتهم.

هل للأمازيغيين خصوصيات بصفتهم "برابرا" ليس غير؟

لقد ذهب كثير من المؤلفين في تاريخ أفريقية الشمالية، والأوربيون خاصة منهم، إلى أن الأمازيغيين كانوا دائما، ولايزالون يميلون إلى الفوضى، وبالتالي إلى التخلص من قبضة كل سلطان يريد تنظيم أمورهم. فنتج من ذلك تتابع الثورات والفتن، بغير انقطاع، في مواطنهم، وتعرُّضُها المستمر للهجمات الآتية من الخارج. ويعزى ميلهم هذا في نظر أولئك المؤلفين إلى... طبيعتهم الأمازيغية التي انفردوا بها. وهذا ليس بتفسير علمي، بل هو تفسير نظري محض صادر عن حسن نية أو عن رغبة سياسية. والواقع الملموس، الذي يلمسه كل من أتيح له أن يدرس تواريخ الأمم مقارنة من زوايا مختلفة، هو أن طبيعة أفريقية الشمالية الجغرافية هي التي كيَّفت في العمق المجتمع الأمازيغي وجعلت منه مجتمعا أقرب إلى البداوة منه إلى الحضارة والتمدُّن؛ وذلك بحكم عاملين اثنين، أولهما اختلاف المناطق خصبا وجدبا، وبرودة

ودفئا، وغزارة أو قلة في الماء، باعتبار تتابع الفصول، ثم وجود» هامش «صحراوي شاسع وراء الأطالس الثلاثة، وجُود داخلية شبيهة بالجرداء. وثانيهما هو اجتياح القحط والجفاف مناطق معيَّنة لمدة معينة، أو مناطق مترامية الأطراف على مدى سنوات، وهو ما يسمِّيه صاحب» الاستقصا «ب» توالي المجاعات والانتجاعات «(ج. 4 ص 67). هذان العاملان هما اللذان تسببا في استمرارية نمط العيش الاستنجاعي، الذي تسبب بدوره في استمرارية النظام القبلي في جل الأقاليم، لأن النظام القبلي هو المواتي لحياة الحل والترحال الجماعيين. وعلى النظام القبلي ترتب ما ترتب من الخصوصيات في التقاليد الاجتماعية، التي تؤثر بدورها في طباع الأفراد، من تلك الخصوصيات مثلا الميل إلى التقشف ورفض حياة البذخ والتنعم. ومن تلك الخصوصيات الحرص على إقرار مبدإ المساواة بين أفراد العشيرة وبين العشائر في نطاق الكيان القبلي، وعلى إقامة أعراف يُتَعَارف عليها في التساكن والتعايش والتعامل في سياق الانتجَاع المستمر. ثم على مراعاة العصبيات التي هي ضمان القدرة على الدفاع عن المصالح المشتركة في حدود آفاق القبيلة المكانية والزمنية، أو على أحسن تقدير، في حدود آفاق حلف من القبائل المتجاورة. ومن هذا كله يحصل توازن اجتماعي نسبي وغير قار يكون في أغلب الحالات هو الحائل دون قيام نظام سياسي قوي، مركّز في المكان، طويل البقاء في الزمان. وفي ضوء هذه الاعتبارات يُبحث عن أسُس الديموقراطية المحلية» البربرية «، وعن سر قدرة الأمازيغيين على مواجهة القوى الأجنبية بعدم الاستسلام لها

حتى عند توالي انتصاراتها الحربية أو السياسية. وفي ضوء هذه الاعتبارات يُدرك السبب الذي من أجله كان» البربر «في العهد الاسلامي يرغبون عن اتخاذ الحَكَم من ذويهم وبني جلدتهم، ومن أجله كان كل ذي طموح سياسي منهم يتنكر لانتمائه القبلي ولانتمائه الأمازيغي (Histoire politique du Maroc).

الديموقراطية المحلية كانت قائمة على مبدإ المساواة بين أفراد العشيرة وبين العشائر التي تجمعها قرابة الدم، ثم بين بطون القبيلة الواحدة أو بين القبائل المتجاورة، ولكن مع مراعاة توازن القوى. لا ينتدب لتمثيل الجماعة في دواليب هذا الحكم الديموقراطي نواب يُعيِّنهم الاقتراع، ولكن يُنتدبُ له الشيوخ الذين ترشِّحهم مكانتهم الاجتماعية و قدراتهم. كان رؤساء العشائر يتهربون من تحمل المسؤوليات نظرا لما يتبعها من التكاليف التي لايجزى عليها بأي تعويض. ولذا كانت مجالس الشورى تحار لا في الفصل بين مرشحين للمناصب بانتخاب أحدهم، ولكن في إيجاد من يقبل تحمل المسؤولية. وكان المجلس يضطر أحيانا إلى اختيار عضو غائب عن قصد أو عن غير قصد، فيأتيه في بيته للالحاح عليه كي يقبل منصبا ما. كانت المناصب الرئيسية، عند قبائل الرحل وأنصاف الرحَّل هي الآتية: القيادة في الحرب، والريادة في الاستنجاع، وعضوية مجلس القضاء. وكانت ريادة الاستنجاع تعوَّض عند أهل المدر بالأمانة على شؤون القرية. كان الرائد يسمى» أمغار نـ توكَا = شيخ المرعى «والقائد» أمغار نـ تيريت = شيخ الاستنفار«. والعضو في مجلس القضاء» أمزَّارفو «أو» أنزَّارفو«. والقضاء الجماعي»

أزرف«. والأمين على شؤون القرية» أنفلوس«. كان القائد يُعيَّن عند نشوب الحرب، تنتهي مهمته بانتهاء الحرب. وكان الرائد يُعيَّن لمدة سنة، من فصل ربيع إلى فصل الربيع الذي يليه. أما عضو مجلس القضاء فكان يُعيَّن لمدة غير محدودة لا تنتهي عادة إلا بوفاته أو باستقالته لعذر مقبول. كان تنظيم الانتجاع يقتضي من» شيخ المرعى «أن يكون عارفا لأماكن الكلأ في تسلسلها بين الجبال والسهول، أو النجود والبراري، ولأهمية مساحتها ونوعيتها وما هو منها ملك خاص، وما هو مشاع (أمردول = المرعى الشاسع؛ ألمو = المرعي الخصب المخضر؛ أزنيكَ = البقعة فيها كلأ؛ أكَدال أو أوْدال = المرعى المحظور). وكان فوق هذا ينبغي له أن يكون ديبلوماسيا قادرا على التفاوض بنجاح مع شيوخ القبائل الأخرى عند المنازعات. أما القائد» شيخ الاستنفار «فكان ينتخب لابالتصويت المرجح لرأي الأغلبية، ولكن بالتعيين المتفق عليه بالاجماع من بين الشجعان الذين لهم سوابق في إصابة الظن والاشارة بالخطة الحربية المناسبة. كان يفوَّض إليه الأمر كله يوم القتال؛ أما شؤون التعبئة والاستعداد فمن اختصاص مجلس الشورى. وكان من المفروض في كل مرشح للعضوية في مجلس القضاء أن يكون ملما بتفاصيل الأعراف والتقاليد التي تستنُّ بها القبيلة، وملما كذلك بالشريعة الاسلامية في خطوطها العريضة، قادرا على الاجتهاد حتى يسهم مع زملائه في حسم القضايا التي هي من باب النوازل حسماً يُغني» فقه «الأعراف. وما تجدر الاشارة إليه أن بعض القبائل تتفق على إنشاء مجالس مشتركة بينها تقوم مقام محاكم الاستئناف،

وأن التقاضي كان يوجب على المتقاضين استعمال تعابير معينة لاشعار المجلس الابتدائي، في لباقة، بأن حكمه مرفوض، واستعمال تعابير أخرى لاشعار مجلس الاستئناف بأن عليه المعوَّل بصفته المرجع النهائي.كانت أحكام مجلس الاستئناف تنفَّذ غالبا بفضل ضغط أعيان القبيلة على المحكوم عليه. كانت المنازعات التي تعرض على مجلس القضاء لا تختلف في شيء عن المنازعات التي تشجُر في المجتمعات الرعوية، أو في المجتمعات القروية من أجل الكلأ والماء والخصومات المتعددة الأسباب، وحراسة البساتين وتحديد الحقول المزروعة. كانت قضايا القتل العمد من أكثر المسائل استعصاء على الحل، وكانت تعالج بالطريقة التي تعالج بها عند البدو الرحَّل في كثير من مناطق المعمور(Le prix du sang...8 à14). كان القضاة يجتهدون في تقدير التعويض عن الجروح اجتهادات تختلف من قبيلة إلى أخرى ومن سنة إلى سنة باختلاف الأوضاع الاقتصادية. كان التعويض عن الجرح في الوجه يحدد عند» أيت عطا «مثلا بالطريقة الآتية: يقف أحد القضاة أمام الجريح ــ بعد أن يكون الجرح الذي في وجهه قد التأم ــ ثم يسير القهقرى رويدا رويدا إلى أن تتعذر عليه رؤية الندبة، أي اثر الجرح، فيتوقف ويقيس أحد القضاة الآخرين ما بينه وبين الجريح من عدد الخطوات، ثم يُصدر مجلس القضاء حكمه بأن يعوِّض الجني عليه عن جرحه. فإن كان رجلا حُكم له بأخذ ما يساوي عدد الخطى غنما، وإن كان امرأة حُكم لها أن تأخذه بقرا .

هذه الأوضاع القبلية كانت سائدة في المجتمع التقليدي

الأمازيغي إلى منتصف القرن العشرين، والغالب أنها لم تتغير كثيرا منذ العصور القديمة. ولقد كانت مصدر قوة وضعف في آن واحد. كانت مصدر قوة لأنها حالت دون قيام أي نظام فيُودالي كالذي عرفته أوربا ودون قيام أي نظام طاغوتي كالذي عرفه وادي النيل لمدة ثلاثة آلاف سنة، ودون قيام أي نظام قيصري ولا كسروي. ولذا لم يُستعبد» البربر «قطُّ استعبادا جماعيا. وحتى إذا برزت لهم في الأفق قوة تدعي الجبروت ناوشتها القبائل بدون انقطاع أو رحلت عن منطقة نفوذها متحيِّنة الفرص للانقضاض عليها وكسر شوكتها عاجلا أو آجلا. وكانت مصدر قوة نِسبيِّة مكّنت الأمازيغيين من مواجعة الهجمات الاستعمارية التي توالت على أفريقية الشمالية ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد. ذلك لأن حياة البداوة تمنع الشعوب من الركون إلى التنعم والاسترخاء، من جهة، ولأن المهاجمين كانوا يجدون أمامهم دائما مقاومة سريعة التنقل من ناحية إلى ناحية، غير ملتزمة بقرار رئاسة مركزية؛ فإذا استسلمت قبائل لاذت قبائل أخرى بالجبال أو بالصحراء لتنطلق منها بعد حين وتنغص على المستعمر مقامه وتجعله دائما في موقف الدفاع إلى أن تذهب ريحه مع الزمان وتبقى الأرض لأهلها. ومما لاشك فيه أن الشعور المبهم بالانتماء العرقي أواللغوي المشترك كان يضمن مستوى أدنى من التآزر بين القبائل في مواجهتها للأجنبي الدخيل. وكانت مصدر قوة نِسْبيِّة لأنها عاقت عمليات المثاقفة التي تلاحقت على أرض المغرب الكبير عن بلوغ مداها في أيِّ عصر من العصور، رغم طول الزمن. فمكنت اللغة الأمازيغية من البقاء. مكنتها من البقاء

في حالة متردية، لكن في حالة قابلة للانتعاش، بينما صارت إلى خبر كان عشرات من اللغات التي عايشتها وعاصرتها في القديم، كالمصرية القديمة واللاتينية والفنيقية والغالية وغيرها .

لكن، من جهة أخرى، كانت تلك الأوضاع مصدر ضعف ملحوظ، لأنها أوّلاً جعلت الأمازيغيين، بصفتهم أمة، في مواقف الدفاع عن النفس في جل حقب التاريخ، مع ما كان يتوفر لهم من القوة الحربية الكمينة في عدد قبائلهم وفي تعوُّدهم حياة الشظف. كانوا يهاجمون في عقر دارهم، ولم يكونوا قادرين على التكتل العسكري الذي تنبع منه الرغبة في التوسع على حساب الغير. وكانت مصدر ضعف لأنها منعت قيام أي دولة مركزية يسمح لها طول بقائها بتنظيم الأمة في عمق كيانها، ولو مع مصادرة جزء مهم من الحريات، وبإنشاء حضارة مادية رفيعة متميزة. وكانت مصدر ضعف، بما أن امتناع» البربر «عن السماح لأية فصيلة منهم بالسيطرة والتعالي كان يضطرهم إلى تحكيم غيرهم في شؤونهم، إما على مستوى الدول وإما على مستوى الأفراد، إلى أن صار ذوو الطموح السياسي منهم، بسبب ذلك، ينتحلون الأنساب غير الأمازيغية كي يَسْتَتِبَّ لهم الأمر؛ فعل ذلك ابن تومرت وعبد المومن بن علي والسلاطين المرينيون وغيرهم، كما فعله من قبلهم يوبا الثاني إذ كان يدّعي ويُرسِّخ في أذهان الناس أنه من سلالة البطل اليوناني الأسطوري» هرقل (Hercule, Heraklês » (Gsell, VIII, 237). وكانت تلك الأوضاع مصدر ضعف، لأنها حالت بين الثقافة الأمازيغية الذاتية وبين النمو والازدهار، وأبقتها على حالتها

المناسبة لنمط العيش القبلي المائل إلى البداوة، فوجدت تلك الثقافة نفسها في تنافس وتبار مع ثقافات أكثر نموا، وسلّمت لها بالتعاقب على شغل مجالات التحضر والتمدن.

وهكذا يمكن القول إن» البربر «لم يكن لهم الاختيار بين المسار الذي ساروا فيه منذ فجر التاريخ إلى اليوم وبين مسارات أخرى، ولكن جغرافية مواطنهم الطبيعية هي التي رسمت لهم معالم ذلك المسار، بما فرضته من أساليب الاسترزاق وما يترتب عليها من ظواهر الدَّور والتسلسل بين تقاليد المجتمع وطباع الأفراد في التفاعل مع بيئة ليست بصريحة الخصب ولا بصريحة الجدب، تجود حينا وتبخل حينا، تضاريسها متجزئة، ومناخها مائل إلى الجفاف مطبوع بالمتناقضات التي من جرائها يستمر انجراف التربة، إذ لا غطاء نباتي ينظِّم توزيع المياه بين الانصراف والتسرب إلى الجوف، ولا» أفق أول premier horizon «يسمح بظهور غطاء نباتي متماسك ذي شأن. وما على المرء، إن هو أراد أن يلمس هذه الظواهر والمظاهر شاخصة للعيان، إلا أن يُمعن النظر في المناظر التي يمكنه أن يشاهدها من الطائرة، في تتابعها من وسط أوربا إلى جنوبيِّ المغرب، إذا ما أتيح له السفر إلى المغرب يوم صَحْو من أيام الصيف أو الخريف أو الشتاء .

أما ما نبت فوق الأراضي» المغاربية «من حضارات مستوردة، فيرجع سبب ازدهاره ازدهارا نسبيا إلى كونه نُقلة فُصلت عن حضارات احتضنت نشأتها وترعرعها أراض أخرى بطبائع جغرافية أخرى، ربّت شعوبا أخرى، إما بخصبها المتواصل ووفرة أسباب التكاثر والتماسك والتكاتل فيها، وإما بقساوتها الداعية

إلى التطلع والتشوف إلى سواها.

ويبقى لنا مع ذلك أن نلتفت ونلفت الأنظار إلى خصوصيتين أمازيغيتين، علاقة إحداهما بالبيئة ونمط العيش ظاهرة، وسبب وجود الأخرى غير واضح. الخصوصية الأولى هي الجنوح إلى التمسك بالراديكالية في الاختيار والسلوك والنظر، ومنها نتج تبنّي الدوناتية المسيحية في العصر القديم، ثم تبنّي مذهب الخوارج في العصر الوسيط، والانفراد بالمالكية، وبها يمكن تفسير صرامة ابن تومرت وصرامة تلامذته من الموحدين الأول، ويمكن تفسير ميل أفراد إلى الصلاحية والنسك المفرطين، وميل آخرين إلى الشعوذة والنّصب والسّطو والتشغيب. والخصوصية الثانية هي ازدراء الاطناب في القول والفخفخة والتبجّح، شأنهم في ذلك شأن الاسبارطيين القدماء (التاريخ العالمي للتربية.l'Histoire Mondiale de l'Education, I, 142...). وعنها صدر موقف يوسف بن تاشفين إذ أمر كاتبه بأن يقتضب الجواب على الرسالة المطولة التي كان ملك أستوريا» ألفونسو «السادس قد بعث بها إليه مُحَذراً له قُبيل يوم الزلاقة. هذه الخصوصية قد تبلورت عند الأمازيغيين في مَثَل سائر قديم يقول» المتبجح القوّال لا يفعل، والفعّال العامل لا يقول = ونّا يُتّينين وُرا يُتكَّا، وُنّا يُتكّان وُرا يُتّيني .

خاتمة

إن من الضروري أن نشير في هذه الخاتمة إلى ظاهرة لايمكن الباحث الجاد أن يغفل عنها حينما يستعرض مصادر التاريخ الأمازيغي، ولايجدر به أن يستنتج النتائج من المقدمات إلا بعد وضع تلك الظاهرة في الميزان، ألا وهي انعدام وجهة النظر الأمازيغي واحتكار خصومهم أو شركائهم لرواية أحداث التاريخ والتعليق على الأحداث. إننا لانعرف عن» بربر «عهد قرطاجة وعهد روما وعهد» بيزانتا «إلا ما رواه الفينيقيون واليونان والرومان أنفسهم، ولا نعرف عن «بربر «عصور الإسلام الأولى إلا ما رواه لنا المؤلفون العرب، ولا نعرف عن «بربر» العهود المتأخرة من التاريخ الحديث، بين القرن السادس عشر والقرن العشرين الميلاديين، إلا ما رواه لنا أعوان السلطة المركزية أو المقرّبون للسلطة، ولا نعرف عن» بربر «المقاومة المسلحة التي تصدّت للفرنسيين بين 1912 و 1934 إلا ما رواه الفرنسيون وكتبوه، ومما يوهمه غياب الأمازيغيين في كتابة التاريخ أنهم لم يحضروا في صنع التاريخ إلا حضوراً هامشيا، ولعل هذه »المحاكمة الغيابية «التي حوكموها هي سبب إدانتهم في غير موقف، لأن حججهم كانت معهم كما يقول المثل العربي، ومن حقهم اليوم أن يطالبوا بالتعقيب على

ما أصدر بشأنهم من الأحكام في ضوء ما جدَّ من أساليب النقد لدى من يزاولون بنزاهة مهنة التنقيب عن ماضي الشعوب (L'histoire sous surveillance). لقد تفطن أحد المؤلفين اللاَّتينيين القدماء ـــ مع كونه لاتينيا ـ إلى بعض شطحات المؤرخ »سالوستيوس، «Sallustius صاحب المرجع الأول الذي يُرجع إليه في دراسة عهد «يوكَرتن،Jugurtha » وقال فيه إنه» إنسان دنيء «مجرد من كل نزاهة فكرية (les Berbers,1,65,note 4). فهل دُرست نصوص ابن عبد الحكم في» فتح المغرب «دراسة نقدية شاملة بصفتها المصدر الأول لأخبار» البربر «عند دخول العرب أفريقية الشمالية؟ وهل حاول مؤرخ ناقد أن يستنبط من المتون ما كان من الدوافع النفسية، أو السياسية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية، وراء التحامل على» البربر «من قبل مؤلفين عرب مشارقة وأندلسيين أمثال ابن حوقل، وابن حزم المسيحي الأصل، وياقوت الحموي الرومي النسب؟ فمما يثير الشك في أن المشارقة يستطيعون أن يعالجوا قضايا المغرب التاريخية بما يقتضيه البحث العلمي من موضوعية، أنهم يصدرون أحكاما جاهزة في مسائل كثيرة دون فحص دقيق لمعطياتها. هذا محمد رشيد رضا يرجح في كتابه» الخلافة والامامة العظمى« الرأي القائل بأن سبب توقف الجيش الاسلامي في جنوبي فرنسا راجع إلى كون أكثر الجنود» بربرا «، دون أن يفسّر كيف استطاع أولئك الجنود أن يفتحوا الجزيرة الأيبيرية الشاسعة في ظرف وجيز، ودون أن يشير إلى الاستياء والتذمر الذي أثاره سلوك الولاة الأمويين في أوطان أولئك الجنود. وهذا الأستاذ الكبير حسن إبراهيم حسن، رحمه

الله، يحكم تلقائيا بأن الشر في النزاع بين العرب و«البربر» في الأندلس، لايمكن أن يصدر إلا عن» البربر«، وذلك عند قوله: «وما كاد شرُّ البربر يزول من الأندلس، حتى قام النزاع بين المضرية واليمنية... «(تاريخ الاسلام، ج 1، ص 322). وهذا أمين الريحاني يبدي سروره، في أحد مؤلفاته، من كون شيخ إسباني» يفرق بين العرب والمغاربة «. أما رأي المشارقة المحدثين في ابن خلدون فيتجاذبه الاعتزاز بكون ذلك المؤرخ الفذ عربيا والاستياء من» إدانته للعرب ومحاباته للبربر«. هذا المؤرخ عبد الله عنان يكتب «...ينتمي (ابن خلدون) في الواقع إلى ذلك الشعب البربري الذي افتتح العرب بلاده بعد مقاومة عنيفة وفرضوا عليه دينهم ولغتهم... «. وهذا فؤاد أفرام البستاني» يفند زعم طه حسين «أن ابن خلدون نفسه كان يشك في نسبه العربي. وهذا أبو خلدون ساطع الحصري يتمحل لاثبات عروبة ابن خلدون بالادعاء أن ابن خلدون إنما كان يقصد بـ «العرب « الأعراب (دراسات عن مقدمة ابن خلدون)، ويتغافل عما جاء في المقدمة نفسها، يُظهِر أن ابن خلدون كان يميِّز جيدا بين مفهومي» العرب» و«الأعراب«، لأن تكوينه الديني كان يتطلب منه ذلك (المقدمة، ص 216، 217 ؛ معجم الفاظ القرآن الكريم، مادة: عرب).

إن الغاية من كل ما تقدم في هذا المقال من تحليلات وملاحظات ليست هي الدعوة إلى جلو صفحات التاريخ الأمازيغي وإعادة كتابتها على حساب الموضوعية العلمية، ولكن الغاية هي لفت النظر إلى أن التاريخ بصفة عامة لايمكن أن يقال بشأنه إنه علم ما لم يُعْفَ من القيام بالدعاية لعرق أو

لقومية أو لوطنية أو لاديولوجية فلسفية، وبالاحرى ما لم يلتزم بالحياد التام، وما لم يتخلص من أسلوب الأدبيات ولم يتوخ الدقة والايجاز اللذين يفرضهما تقصي الحقائق في غير لبس للحق بالباطل ولا للواقع بالأسطورة أو الخيال .

المراجع البيبليوغرافية ملاحظة:

كان القصد من كتابة هذه الفصول هو تقديم نظرة شمولية عن تاريخ الأمازيغيين، مع ما فيه من استمرارية. وبما أن من المفروض أن للقارئ العربي المسلم دراية بتاريخ» البربر» في العهود الاسلامية، لقد اقتُضِبت الفقرات المتعلقة بتلك العهود اقتضابا؛ بينما تُوُسِّع في التعريف بتاريخ أمازيغيِّي ما قبل الاسلام. لهذا نرى أن عدد المراجع الأجنبية في هذه البيبليوغرافية أكثر بكثير من عدد المراجع العربية.

-1 المراجع العربية:

- ابن ابي زرع: روض القرطاس.
- ابن خلدون، المقدمة، المجلد الأول من تاريخ ابن خلدون، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1958.
- ابن عبد الحكم، فتوح افريقية والاندلس، تحقيق عبد الله الطباع، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1964.
- ابن عبد العظيم الازموري: بهجة الناظرين وأنس الحاضرين ووسيلة رب العالمين في مناقب رجال أمغار الصالحين، مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، رقم 1501.
- ابن مرزوق التلمساني، محمد: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمد بوعياد، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1401هـ/ 1981.
- الادريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق هانري بيريس، الجزائر، دار الكتاب، 1957.

- أمرير عمر: الشعر الأمازيغي المنسوب الى سيدي حمو الطالب، الدار البيضاء، مطبعة التيسير، 1987.
- الجزنائي، علي: جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس.
- الصافي، مومن علي: أوسّان صمّيدنين، مطبعة الأندلس، 1983.
- حسن، ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام، الجزء 1، ط. 7
- القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1964.
- ساطع الحصري: دراسات عن مقدمة ابن خلدون، ط. موسّعة، القاهرة، دار المعارف، 1953.
- شفيق، محمد: الشعر الأمازيغي والمقاومة المسلحة في الاطلس المتوسط وشرقي الاطلس الكبير، مجلة الاكاديمية، عدد4، 1987/1408.
- عبد الرزاق، محمد اسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب
- الدار البيضاء، دار الثقافة، 1976.
- مجمع اللغة العربية: معجم ألفاظ القرآن الكريم.
- مستاوي، محمد: ئسكراف، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1976.
- مستاوي، محمد: تاضصا د-يمطّاون - الدار البيضاء، دار الكتاب، 1979.
- الناصري، أحمد بن خالد: كتاب الاستقصا، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1954، 2

- المصادر الأجنبية أو المكتوبة بلغة أجنبية:

- AGNOUCHE, Abdellatif - Histoire politique du Maroc, Casablanca -Afrique Orient 1987.
- AKKACHE, A - Tacfarinas - Alger, S.N.E D., 1968.
- AYMARD, André, AUBOYER, Jeannine - Histoire générale des civilisations, Paris : P.U.F., 1967 - Vol. I, II.
- BAILLY, A :
- Dictionnaire Grec-Francais, 11 ème Ed. - Paris : Hachette, 1894.
- BASSET, André - La langue berbére - Paris : E. Leroux, 1929.
- BASSET, André - Quelques considérations sur la langue berbère
- Revue du monde non-chrétien, n° 11, Juil.-Sept. 1949, 12 p.
- BENABOU, Marcel, - Juba II ou l'Africanité vassale de Rome, In Les Africains, Paris: Ed. Jeune-Afrique, 1977, pp. 141-165.
- BENABOU, Marcel - La résistance africaine à la romanisation, Paris, Maspéro, 1976.
- BENABOU Marcel - Tacfarinas : Insurgé berbère contre Ia colonisation romaine, in Les Africains - Paris, Ed. Jeune-Afrique, 1977, pp. 293-313.

- BERNARD, Jean - Le sang et I'histoire - Paris, Buchet-Chastel, 1983.
- BERTHIER, André - La Numidie, Rome et le Maghreb, Paris, Picard, 1981.
- BOUCHENAKI, Mounir - Jugurtha : Un roi berbère et sa guerre contre Rome, in Les Africains - Paris, Ed. Jeune-Afrique, 1977, pp. 165-191.
- BOUKOUS, A. - Le profil sociolinguistique du Maroc, B.E.S.M, n° 140, 1979, pp 5-31. numéro spécial : Culture populaire marocaine.
- BRUNNEL, Pierre, JOUANNY, Robert: - Les grands écrivains du monde, Paris, F. Nathan, 1976.
- Bulletin de I'enseignement public au Maroc, n° 24, Octobre 1920, pp. 302-438. - CAMPS, Gabriel. - Berbères : Aux marges de I'histoire - Toulouse, Hespérides, 1980.
- CESAR, Jules -- Guerre d'Afrique / Texte établi et traduit par A. Bouvert - Paris, Les Belles Lettres, 1949.
- CHABOT, J. B. - Recueil des inscriptions libyques.-Paris, Imprimerie Nationale, 1940-1941.
- CHAFIK, Mohammed. - En ce qui concerne les noms de Masinissa et Jugurtha, in franssich Heute, Frankfurt, Juin 1984 (Spécial Maghreb).
- CHELHOD, Joseph. - L'Arabie du Sud, Paris,

Maisonneuve, 1984.
- CHOTTIN, Alexis. - Tableau de la musique marocaine, Paris, Geuthner, 1939.
- COHEN, Marcel. - Pour une sociologie du langage, Paris, A. Michel 1956.
- DECRET, François, FANTAR, Mhamed. - L'Afrique du Nord dans l'antiquité, Paris, Payot, 1981.
- DRAGUE, Georges. - Esquisse d'histoire religieuse du Maroc, Paris, J. Peyronnet, 1951.
- EDON, Georges. - Dictionnaire Français-Latin, 13e Ed., Paris, Librairie Eugène Belin, 1939.
- ELISSEEFF, V., NAAUDOU, WIET, G., WOLFF.
- Histoire du développement culturel et scientifique de l'humanité, Paris, UNESCO, Vol. III.
- Encyclopédie Berbère - Aix-en-Provence : EDISUD, 1987, Volume IV.
- FERRO, Marc. - Comment on raconte I'histoire aux enfants, Paris, Payot, 1981.
- FERRO, Marc - L'hitoire sous surveillance, Paris, Calmann-Levy, 1985.
- FOUCAULD, Charles de - Dictionnaire Touareg-Français, Paris, Imprimerie Nationale, 1951, 4Vol.
- FOURNEL, Henri. - Les Berbers, Tome 1. Paris,

Imprimerie Nationale, 1879.
- GAFFIOT, Félix. - Dictionnaire Latin-Francais - Paris, Hachette 1934
- GALAND, Lionel. - Langue et Littérature Berbères- Paris, C N.R S., 1979.
- GSELL, Stéphane. - Histoire ancienne de I'Afrique du Nord - Paris, Hachette, 1920 - 1928 , 8 Vol
- HANOTAUX, G. - Histoire dé la Nation Egyptienne - Paris, Plon, 1935 -1940, 7 Vol. - Horaires, Programmes, instructions- Rabat, Direction de I'Instruction Publique, 1950.
- JACQUES-MEUNIE, Dj. - Greniers - citadelles du Maroc. - Paris, Arts et métiers, 1951, 2 Vol.
- JACQUES-MEUNIE, D. - Le prix du sang chez les Berbères de l'Atlas - Paris, Imprimerie Nationale, 1964.
- JULIEN, Charles-André. - Histoire de I'Afrique du Nord - Paris, Payot, 1986, 2 Vol. - LAOUST, E. - Cours de berbère marocain - Paris, Geuthner, 1939. - LAOUST, E. - Siwa : son parler - Paris, E. Leroux, 1931. - LEFEBVRE, Gustave - Grammaire de I'Egyptien classique. - Le Caire, Institut Français d'Archéologie Orientale, 1955.
- LOCQUIN, Marcel. - In Science et Vie. n° 31, juin 1980. - MAMMERI, Mouloud. - Les Isefra : poémes

de Si Mohand ou Mhand. - Paris, Maspéro, 1982.
- MANDOUZE, André. - Prosopographie de l’Afrique chrétienne. - Paris, C.N.R.S 1982. - MANDOUZE, André. - Saint Augustin, 354 - 430 : Une africanité en question, in Les Africains, Paris, Ed. Jeune-Afrique, 1978, pp. 73-103. - MARCAIS, Georges. - Les Arabes en Berbérie du 11e au 14e siècle, Paris, E. Leroux, 1913, 771 p. - MARCY, Georges. - Introduction à un déchiffrement méthodique des inscriptions tifinagh du Sahara central. - Hesperis, 1r - 2e trim. 1937, pp. 89 - 118. - MARCY, Georges - Les inscriptions libyques bilingues. - Paris, Imprimerie Nationale, 1936. - MEILLET, A., VENDRYES, J. - Traité de grammaire comparée des langues classiques - 5e Ed., Paris, Honoré Champion, 1979. - MIALARET, Gaston. - Histoire mondiale de l'éducation - Tome 1, Paris, P.U.F., 1981. - PERETI, Luigi - Histoire du développement culturel et scientifique de I'humanité, Paris, UNESCO, Vol. II. - PLINE L'ANCIEN. - Histoire naturelle, Livre V /Texte établi et commenté par Jehan Desanges, Paris, Les Belles Lettres, 1980. - RACHET, Marguerite. - Rome et les Berbères. - Latomus, revue d'études latines, Bruxelles, 1970. - RENISIO, A. - Etudes sur les dialectes berbères. - Paris, E. Leroux, 1932. - Répertoire alphabétique des

confédérations de tribus, des tribus, des fractions de tribus et des agglomérations de la zone française de l'Empire chérifien au 1er novembre 1939. - Casablanca, 1939 - 1017 p. - REYGASSE, Maurice. - Contribution à l'étude des gravures rupestres et inscriptions tifinagh du Sahara central, Alger, J.Carbonnel, 1932. - REYNIERS, F. - Taougrat, Paris , Geuthner, 1930. - RI N N, Louis. - Les Origines berbères, Alger, A. Jourdan, 1889. - ROGET, Raymond. - Le Maroc chez les auteurs anciens - Paris, les Belles Lettres, 1924. - SAINT-QUENTIN, Louis de. - 3000 ans avec les Berbères - Paris, Delagrave, 1949. - SALLUSTE. - Bellum Jugurthinum/Texte établi par Alfred Ernout, Paris, les Belles Lettres, 1971. - SILIUS ITALICUS. - La guerre punique, Tome 1, livres I-IV /Texte établi et traduit par Pierre Minoconi et Georges Devallet, Paris, les Belles Lettres, 1979. - TLATLI, Salah-Eddine. - La Carthage punique - Paris, Librairie d'Amérique et d'Orient, Maisonneuve, 1978.

بيان بشأن بعض الصور المدرجة بين صفحات هذا الكتاب

بعض الصور المدرجة بين صفحات هذا الكتاب مقتبسة من مؤلّف «كَابريال كامبس، Gabriel Camps»: «أمازيغيون، Berbères» Toulouse, Hespérides, 1980. (وقد شجّعني على هذا الاقتباس علمي أن الأستاذ «كامبس» يخْدِم تاريخ "المغارب" من أجل نشر المعرفة المستقصية للبحث عن الحقائق التاريخية).